

والناس يستمسكون عادة بالمذهب القديم كما يستمسكون بالآلهة
وأن تقضى زمانهم،

غاب عن بعض الفلاسفة تاريخ الانسان وتقلب ماهية قوته
العاقلة وتغير قوانين تناسله الطبيعية فقاموا ينشرون في الناس
فكرة المساواة بين الافراد وبين الشعوب

خلبت هذه الفكرة أذهان الجماعات فارتكزت في عقولهم
ارتكازاً قوياً وآتت أكلها بعد زمن يسير فزعزعت أسس
الجماعات الأولى وولدت أعظم الثورات ورمت أمم الغرب في
اضطرابات شديدة لا يعلم مصيرها الا الله

على أن الفروق بين الفرد والفرد وبين الامم بعضها وبعض
من الامور المسامة فلا ينكرها أحد حتى أولئك الفلاسفة
ولكنهم تعجلوا بالاعتقاد أنها ناشئة عن اختلاف التربية وأن
الناس يولدون متساوين في الدكاء وطيب النفس وأن المنظمات هي
التي أفسدت عليهم ذلك ومن يسهل عليه هذا الاعتقاد لا يصعب
عليه إيجاد الدواء . لذلك قالوا انه يتم بتغيير المنظمات وتوحيد
التعليم للجميع . وهكذا أصبحت المنظمات ومسائل التعليم ذخراً
أهل مذاهب الحرية (الديمقراطية) وعدتهم في زماننا هذا وهي
التي يرون فيها الوسيلة لإبطال الفروق التي تجرح مبادئ العصر
الحاضر بعد أن صارت تلك المبادئ من المعبودات

إلا أن العلم تقدم وأثبت بالبرهان بطلان مذاهب المساواة وأن الهوة التي أوجدها الزمان في عقول الافراد والشعوب لا تزول إلا بتراكم المؤثرات جيلا بعد جيل . ودل علم النفس بقدر ما وصل اليه الآن كما أثبتت التجارب أن النظمات والتربية التي تليق بأفراد أو بأمة قد تضر بأفراد آخرين أو بأمة أخرى . لكن ليس من مقدور الفلاسفة إبطال مذهب انساب في الاذهان يوم يبين لهم أنه غير صواب فالهكر اذا شلق بالنفوس بشبه النهر اذا طغى يفيض مأؤه من فوق الجسور ويغرق الحقول ويخرب المزارع وما من شيء يعوق اندفاعه

ما من عالم نفسي ولا من سائح ذي نظر ولا من سياسي مجرب إلا وهو يعتقد الآن خطأ ذلك المذهب الخيالي أعى مذهب المساواة الذي قلب الدنيا رأساً على عقب وأقام في القارة الاوروية ثورة ارجح الكون منها وأذكر في القارة الاميركية نار حرب الاجناس وصير جميع المستعمرات الفرنسية في حالة محزنة من الانحطاط ومع ذلك فقلما يوجد بين أولئك المفكرين من يقوم في وجهه بتعارضة ما

ولم يدخل مذهب المساواة حتى الآن في دور السقوط بل هو لا يزال يندو ولعظاء فهد الذي ياعى الاشتراكيون انه الوسيلة لأعداء العرب مع أن المناهر أنه يعيش بتلك الأمم

الى الاستعباد . وباسمه قامت المرأة تطلب المساواة بالرجل
في الحقوق وفي التربية وقد نسيت ما بين النوعين من الفروق
العظيمة في القدرة العقلية ، وهي اذا فازت بمطلبها جعلت الاوروبي
رجلا من الرجل لا يعرف له بيتاً ياويه ولا عائلة يسكن اليها
أما الامم فتسكاد لا تهتم بما نشأ عن هذه المبادئ من
الانقلابات السياسية والاجتماعية ولا بالى ستحدثه في المستقبل
مما هو أشد تأثيراً وأعظم ضرراً . وليس رجال السياسة بأكثر
اهتماماً من أممهم بهذه الحوادث لقصر حياتهم في مرا كزعم في هذا
الزمان ولان السيطرة أصبحت للرأى العام فهو القاهر فوق
الحكومات ولا مندوحة لاحد عن اتباعه

ليس لمذهب من المذاهب من الاهمية الا بمقدار تأثيره
في نفوس المتخافين به . أما ما فيه من صواب أو خطأ فمسألة
نظرية لا تهتم إلا الحكماء . ومضى دخل مبدأ في أذهان العامة
وجب الخضوع لنتائجه كلها صواباً كان المبدأ أو خطأ

ومن أجل ذلك نرى أهل مذهب المساواة يسرون
في تقريره من طريق الانتقائات والتعظيم ويطمعون بذلك في تقويم
مظالم النواميس الطبيعية وفي صيغ عقول زنوج (المرتينيك)
وسكان (جواداوب) و (السنغال) وعرب الجزائر وأهل آسيا
لصنعة واحدة وهم فيما ذهبوا اليه واهمون . فمن المحقق أن خيالهم

لن يتحقق ، غير أن التجارب وحدها هي التي تبرهن على ما ينجم
عن الخيالات من الشرور . أما العقل فليس في استطاعته تحويل
الناس عن معتقداتهم .

والغرض من هذا الكتاب بيان الاخلاق النفسية التي
تكون منها روح الشعوب والبرهنة على أن تاريخ الامة
ومدنياتها منزعان من هذه الاخلاق وعليه فانا سنبحث
في كيفية تكون الامم التاريخية وتربية مزاجها العقلي . ونريد
بالامم التاريخية الامم العارضة بعد التاريخ وهي التي كونتها
الفتوحات والهجرة والتقلبات السياسية ثم نبين أن تاريخها مأخوذ
من تكونها على هذا النحو ونشير الى ماهو عليه أخلاق الامم
من الثبات أو التقلب . وننظر هل الامم وكذا الافراد سائر
الى التساوي أو هم سائررون إلى الضد بحيث يكثر التفاوت بينهم
وتعظم الفروق . ونرى بعد ذلك هل عناصر كل مدنية وهي
الفنون والنظامات والمعتقدات مظهر من مظاهر روح أمتها ؟
والدالك لا يتأتى نقلها من أمة الى أخرى . وتنتهي ببيان الحوادث
القهرية التي ينطفي بسببها براس المدنية ويعفوا أثرها . ولا تعرض
في أبحاثنا هذه إلى التفاصيل إلا بقدر ما تمس الحاجة اليه لبيان
المبادئ وتقريرها إذ كل ذلك مما أطلنا شرحه في عدة مؤلفات

نشرناها عن المدينة الشريفة وما هذا السفر الصغير إلا خلاصة
ما قد فصلناه

أخص ما استجلبته من سياحاتي البعيدة في البلاد المختلفة
هو أن لكل أمة مزاجاً عقلياً ثابتاً كثبات خواصها التشريعية
وهذا المزاج هو الذي تصدر عنه مشاعرها وأفكارها
ونظوماتها ومعتقداتها وفنونها . وقد ظن (توكفيل) وغيره من
كبار المفكرين أن نظومات الأمم أصل في تطورها . ولكني
على الضد من ذلك أزوج أن أقيم البرهان من أحوال الأمم التي
بحث فيها (توكفيل) على أن تأثير النظومات في المدينة ضعيف
جداً وإنما في الغالب مسببات وقلمما تكون أسباباً

ومما لا شبهة فيه أن تاريخ الأمم يتكون من عناصر شتى
ومن تلك العناصر كثير من الحوادث الفردية والاتفاقات
والعوارض التي كانت وكان يجوز أن لا تكون . إلا أن هناك غير هذه
الحوادث المرضية نواميس كلية ثابتة تدير المدينة في كل أمة بمقتضاها
وأهم هذه النواميس وأعمها وأثبتها هو المزاج العقلي . وما حياة
الامة أعني نظوماتها ومعتقداتها وفنونها إلا اللحمة الظاهرة من
نسيج روحها . ولا يتسنى لامة أن تغير نظوماتها أو معتقداتها
أوفنونها إلا إذا غيرت روحها نعم ليس هذا هو الذي نراه مسطوراً
في التاريخ ولكننا سنبرهن بالسهولة على أن ما فيه مما يخالف

نظرة مبني على ظواهر لا حقيقة لها

اجتهد المصلحون الذين يتعاقبون منذ قرن في تغيير كل شيء فإرادوا تغيير المعبودات والأرض وسكانها وهم إلى الآن ما نالوا إلا يسيراً من طبائع الأمم التي ثبتها الزمان فيها ذلك لأن إدراك الفروق الثابتة بين المخلوقات وعلى الأخص أفراد النوع البشري ليس مما يتفق مع مذهب الاشتراكيين في هذا الزمان والعلم ليس بكاف وحده في إقناع رسل مذهب جديد بأنهم فيه واهمون وأن استمساكهم بأرائهم ناشئ من كونهم يتبعون خطوات من سبقهم في البحث عن السعادة الدنيوية التي ما فنى الإنسان يروا إليها مذ خلق الله الأرض وما عليها . فهم يبحثون عما اختصت به بنات (أتيله وهيسبرياس) (١)

وما أحلام المساواة بأقل قيمة من الأوهام التي جرى الإنسان خلفها قبل ذلك لولا أنها ستر نظم بصخرة الفروق الطبيعية في الناس وإذا أضفت إلى هذه الفروق ما ينتاب المرء من الهرم ثم القضاء رأيت أن ذلك بعض ما ملئ به هذا الوجود من المظالم الطبيعية التي لا مناص للإنسان من حكمها

(١) ثلاث مئات من هدين الآوين يدكر تاريخ الخرافات إن كان لمن بستان من شجر التفاح نوره من الذهب الوهاج ويحرسه مارد حبارقتله (هرقل)

الباب الأول

طباع الشعوب النفسية

الفصل الأول

روح الشعوب

طريقة الطبيعيين في تقسيم الانواع — تطبيق هذه الطريقة على
الانسان — بيان المييب في تقسيم الشعوب البشرية الحارى عليه العمل حتى
الآن — أساس التقسيم النفسى — المثال الوسطى الشعب — كيف يتوصل
إلى معرفته بالنظر والاستدلال — العوامل النفسية التى يتكون منها المثال
الوسطى فى الشعوب — تأثير الاجداد والابوين — الطوائع العسية العامة
التي توحد فى كل فرد من أفراد الشعب الواحد — تأثير الاجيال الماضية
العظيم على الاجيال الحاضرة — أسباب هذا التأثير على التحقيق — كيف
انتشرت روح المجموع من العائلة إلى القرية ومن القرية إلى المدينة ومنها
إلى الاقليم — مرايا فكرة المدينة ومصارها — الاحوال التي يتعدر معها
تكوين روح للمجموع — مثال إيطاليا — كيف ان الشعوب الطبيعية
بادت وحلت محلها الشعوب التاريخية

يدعى الطبيعيون تقسيمهم أنواع الكائنات على صفات وخواص
تظهر دائماً في النسل بصورة واحدة. ونحن نعلم الآن هذه
الخواص تتحول شيئاً فشيئاً بما يطرأ على النسل من التغير غير
المحسوس. لكن إذا نظرنا إلى الزمن التاريخي وحده جاز لنا
القول بأن الأنواع لا تتغير لأن ما عرف من ذلك الزمن قصير
وقد تمكن الطبيعيون بطريقتهم هذه من تقسيم الإنسان
إلى أنواع يمتاز بعضها عن بعض تمام الامتياز مستدلين على ذلك
ببعض الفروق الجسمية التامة الوضوح كلون البشرة وشكل
الجمجمة وحجمها. وغلب على الظن أن الجنس البشرى مكون
من أصول شتى. ويرى العلماء المحافظون على التقاليد الدينية أن
هذه الأنواع هي القبائل والشعوب. ولقد أصاب بعضهم حيث
قال إنه إن صح عند البعض أن الزنجى والقوقازى من فصيلة
(القولماسين) فإن علماء التكوين يؤكدون بالاجماع أن هذين
القسمين نوعان كبيران لا يجوز أن يكونا تولداً من زوجين اثنين
ثم افتراقاً عن أصلهما شيئاً فشيئاً بمرور الزمن
على أن الخواص الجسمية ولا سيما ما أمكن أن يقع منها
تحت البحث الآن لا تسمع بتقسيم الجنس البشرى إلا إلى
أنواع عامة قاصرة جداً لأن الفروق لا تظهر إلا في الشعوب
المتباينة في الخلقة تبايناً عظيماً كالبيض والزنج والحر مع أن من

الأمم من تشابه في أجسامها وخلقها وتختلف كثيراً في مشاعرها
وعملها فتختلف بذلك أيضاً في مدينتها ومعتقداتها وفنونها وليس
من المسلم جمع الآسيائي والإنكليزي والعربي في نوع واحد لأن
الفوارق العقلية الموجودة بينهم بادية لكل ناظر تقرأ مستورة
في كل صفحة من توارخهم

وبى بعضهم تقسيم الأمم التي لا تظهر فيها الفروق الجسمانية
على مميزات أخرى كاللغة والدين والجامعة السياسية إلا أن هذا
التقسيم لا يحتمل البحث لظهور خطأ

لكن إذا أعجزتنا الخواص الجسمانية واللغات والأقاليم
والجامعة السياسية في تقسيم البشر فإن علم النفس يعيننا على
الوصول إلى غرضنا في هذا الباب إذ يرشدنا إلى وجود بعض
الصفات الأدبية والعقلية التي تؤثر في تطور الأمم مستورة
خلف النظمات والتموز والمعتقدات والتقلبات السياسية وإلى
أن روح الشعب تتكون من مجموع تلك الصفات

لكل شعب مزاج عقلي ثابت بمقدار ثبوت الخواص
الجسمانية . نعم لا جدال في أنه يوجد بين المزاج العقلي وبين
طبيعة المناخ نسبة . غير أن العلم لم يبلغ من الارتقاء درجة تعرف
بها حقيقة ذلك التركيب فلا يجوز لنا حينئذ أن نتخذه قاعدة

لتقسيم الأنواع . على أن معرفة ذلك لن تؤثر في بيان المزاج العقلي
الناشئ عنه كما يدلنا النظر عليه

والصفات الأدبية والعقلية التي يتكون من مجموعها روح
الامة هي خلاصة ماضيها وميزاتها أجدادها وعلة حركتها التي
تسير عليها . وقد يظهر ان تلك الصفات مختلفات اختلافاً كبيراً
في أفراد الامة الواحدة الا أن الاستقرار يؤيد أن أغلب أفراد
تلك الامة مشتركون في صفات نفسية عامة وثابتة ثبات صفاتهم
الجسمية التي يمتاز بها نوعهم عن نوع أفراد أمة أخرى . والصفات
النفسية كالصفات الجسمية تتجدد مع النسل تجدداً منتظماً
مستمرّاً

ومن مجموع الصفات النفسية التي يشترك فيها أفراد كل أمة
تتكون الصفة العامة التي يعبر عنها بخلق الامة أو الخلق الملى .
وبعبارة أخرى يتكون المثال الوسط الذي يمكن اتخاذه عنواناً
للامة . فإذا أخذنا ألف انجليزى أو ألف فرساي أو ألف صيني
حيثما وجدناهم شاهدنا بينهم اختلافاً كبيراً . لكن أفراد كل
جماعة يشتركون مع بعضهم في صفات عامة بمقتضى النسل الملى
الخاص بهم . وشيوع ذلك فيهم يسهل تصور الرجل الفرنسي
أو الانجليزى أو الصينى في عمومته كما يتصور الطبيعيون بواسطة
الصفات الجسمية الفرس أو الكلب مثلاً لان الوصف الذى

يصفون هذه الحيوانات لا يدرج تحته إلا الفرس أو الكلب
من حيث اشتراك فرد كل نوع مع غيره من أفراد ذلك النوع
في صفاته الجسمية العامة فلا يشمل متفرقات كل نوع أو أحاده
المختلفة

ويكفي أن تكون الامة قديمة قدمها يجعلها ممتزجة المجموع
ليسهل على كل ناظر تمييز المثال الوسط من أفرادها ، فإذا نزل
الانسان يلد فأول ما يستوقفه من أهلها الصفات السائدة عليهم
جميعاً ، والسبب في ذلك كثرة توارده تلك الصفات على الزائر ،
وأما الفوارق الشخصية فاتها تفوته لعدم تكرارها ، وهذا هو
السرف في أن الانسان يميز لساعته الانجائزي أو التلياني أو الاستياني ،
ويسهل عليه أن يضيف إلى الواحد منهم صفات عامة أدبية وعقلية
هي تلك الصفات الاولى التي قدمنا ذكرها ، وذكر (الانجليزي)
أو (الجاسكوني) أو (النورمندی) أو (الفلامندی) يقابل في
الذهن صورة خاصة من مثال معروف من قبل يسهل علينا وصفه
وتعريفه ، فإذا طبق هذا الوصف على فرد بذاته قد لا يكون
جامعاً بل قد يكون غير صواب لكنه اذا طبق على المجموع كان
منضبطاً تمام الانضباط ، وطريقة بيان المثال الوسط في أمة بذاتها
تشبه في كونها غير تنبيهية تمام الشبه طريقة الطبيعيين في تقسيم
الانواع

ولوحدة المزاج العقلي عند جمهور كل أمة أسباب بسيطة معروفة في علم وظائف الاعضاء فالواقع أن كل فرد ليس ثمرة والديه وحدها بل هو أيضاً ثمرة أُمته أعني سلسلة أجداده . وقد أحصى أحد العلماء الاقتصاديين وهو موسيو (شيسوان) أن الفرنسي يولد في جسمه دم عشرين مليوناً على الأقل من معاصري سنة ١٠٠٠ وذلك باعتبار أن في كل قرن ثلاثة أجيال . وهو يقول أن جميع سكان كل ناحية أو إقليم يشتركون حتماً في أجدادهم فهم مخلوقون من طينة واحدة وعابهم كلهم طابع واحد . وهم على الدوام يتجذبون الى ذلك المثال الوسط أي الى تلك السلسلة الطويلة الثقيلة التي هي آخر حلقة من حلقاتها . فتحزن أبناء آبائنا . وشعبنا معاً وليس شعورنا وحده هو الذي يجعلنا نرى الوطن أمماً ثانية بل الشعور والخواص الجسمية والوراثة معا هي التي تولد في نفوسنا تلك العاطفة .

وإذا أردنا أن نعبر عن العوامل التي يخضع الإنسان لها في حركته تعبيراً بسيطاً قلنا انها ثلاثة أنواع أولها وأشدها تأثيراً عامل الأجداد . والثاني تأثير الوالدين . والثالث تأثير البيئة وقد ظن بعضهم أن هذا الأخير هو أشدهما فعلاً وهو في الحقيقة أضعفها . لأن البيئة وما يتدرج تحتها من المؤثرات المادية والمعنوية التي تعمل في الإنسان مدة حياته وعلى الأخص في زمن التربية

لا تؤثر فيه الا أثراً ضئيلاً . وإنما يعظم أثرها اذا توالى بالتناسل
زمناً طويلاً

وعلى ذلك فالرجل ابن أمته دائماً مهما كان عماله . وبمجموع
الافكار والمشاعر التي يأتي بها أفراد كل أمة يوم يولدون هي
روح تلك الامة وهي خفية في ماهيتها ولكنها ظاهرة ظهوراً
كلياً في آثارها لانها هي الحاكمة في الحقيقة على تطور الامة . مثل
الامة كممثل بمجموع الخلايا التي يتكون منها الفرد الواحد . حياته
حياة تلك الخلايا يخططها العدق قصيرة . وحياة الذات التي تتكون
منها أكثر دواماً . فلها حياتان حياة ذاتية هي الخاصة بكل خلية
وحياة كلية هي حياة الفرد التي يتكون من مجموعها . كذلك للفرد
في الامة حياة قصيرة هي حياته الذاتية وحياة طويلة هي حياة
المجموع الذي يتألف منه ومن غيره . وهذه الاخيرة هي حياة
الامة التي ولدته والتي هو عامل من عوامل دوامها والتي هو على
الدوام تابع لها

وعليه اعتبار الامة ذاتاً دائمة مجردة عن الزمان وتلك الذات
تتألف من أفرادها الاحياء الذين يشخصونها في زمن معلوم ومن
سلسلة الاموات الذين هم أجدادها . لذلك اذا أردنا أن ندرك معنى
الامة الحقيقي ينبغي أن نمتد بها في الماضي وفي المستقبل معاً .
وأشد الفريقين قوة هم الاموات لانهم هم الأكثر عدداً وهم

وربما كان أهم أثر ترتب على الثورة الفرنسية تسوية تعجيل هذا التكوين
بأجهازها على الموانع الناتجة من تعدد الجنسيات الصغيرة في قلب
الامة إذ كان منا (البيكاردي) و (الفلاندي) و (البورجونيني)
و (الجاسكوني) و (البروتوني) و (البروفنسي) وغيرهم من
الدوائف التي كانت تتناسم البلاد الفرنسية في الزمن الماضي وكلها
شعوب مختلفة لكل منها مشاعر وأفكار تميزه عن غيره فلم
يكن من السهل جعل الواحدة تامة . وهذا هو السبب في كثرة
الخلف وقيام النزاع بيننا من أغلب الاوقات مما لا تعرفه أمة ذات
وحدة كاملة كالامة الانجليزية . هناك امتزج السكسوني
والنورمندي والبروتوني فكونوا عنصراً متشابهاً فترى كل شئ في
حياة الامة متشابهاً وبسبب هذا الامتزاج تمكنت عند القوم
الاسس الثلاثة التي يتكون روح الامة منها وهي : مشاعر عامة ،
ومنافع عامة . ومعتقدات عامة ومتى بلغت أمة هذه الدرجة من

والعلل هي لو عارتمات المعلومات كما ان حانات الشطرنج هي لو عارتمات عدد حبات
البرق مسألة يصعب تلك الحبات بحدود خانات الرعة وكذلك في المبالغ ذات الرمح
المركب يعظم نمو المال بحيث يصير عدد السنين لو عارتم رأس المال المتحدد ويمثل
تلك الاسباب يمكن الدلالة على سير اغلب الحوادث الاجتماعية مع حيات هندسية
محكي ذلك البصيف وقد توصلت في موضع آخر الى بيان ان هذه المعيات يمكن
تحليلها بواسطة عملية القطع المكافئ أو القطع الرائد ويرى موشو شيسون
ان ذلك يكون اسهل بواسطة العملية ذات الاس المتير

الوحدة القومية اتحد جميع أفرادها بدون انتباه خاص على جميع مرافقها المهمة وانتفت من بينهم أسباب الخلف الكبير

وحدة المشاعر والافكار والمعتمدات والمنافع الناشئة من كروار الدهور تقوى فى الامة وحدة المزاج العقلى وتزىد فى ثباته وتحدل للامة سلطانا كبيرا . بهذا بلغت روما أوج عظمتها فى غابر الزمان وبه ارتفعت انكلتره الى أعلى سلم مجدها فى هذه الايام . ومى زالت هذه الوحدة انشرط عقد الامة وكذلك سقطت صولة الرومان يوم أضاعوها

كان لكل أمة فى كل زمان نصيب من تلك المشاعر والافكار والتقاليد والمعتقدات الموروثة التى يتكون منها روح المجاميع البشرية إلا أن نموها سار سيرا بطيئا . وكان وجود الروح أولا فى العائلة ثم انتشر منها فى القرية ثم فى المدينة ثم فى الاقليم ولم يعم جميع السكان إلا فى أزمان قريبة منا هنالك وجدت فكرة الوطن بالمعنى المفهوم لنا فى هذا العصر لانها لاتصير واضحة إلا إذا تم تكوين الروح ولهذا لم تترق فكرة الوطن عند الاغريق الى أبعد من فكرة المدينة ودامت مدائنهم فى حرب مستمر لان كل واحدة منها كانت أجنبية فى الواقع عن البقية كذلك لم تعرف الهند منذ ألى عام شر وحدة القرية فعاشت من

ذلك الحين تحت حكم الاجنبي تقوم فيها ممالككم بسهولة كما
يدول بسهولة

فكرة المدينة كوطن خاص ضعيفة من حيث القوة الحربية
ولسكنها كانت دائماً شديدة الاثر في ارتقاء الحضارة ومع كون
روح المدينة أصغر من روح الوطن فهي أغزر مادة وأعظم
ثمرة فلمد دللتنا آئتنا في الزمن القديم وفلورنس والبندقية في
الازمان الوسطى على درجة الحضارة والرقى التي تصل اليها المجموع
البشرية الصغيرة

ومتى طال الزمن على المدن الصغيرة والاقاليم الصغيرة وهي
مستقلة عن بعضها تتولد في كل منها روح ثابتة يتعذر معها غالباً
مزجها ببعضها ببعض ليتكون في مجموعها روح ملي واحد .
وإذا تيسر ذلك أحياناً بأن لم يكن هناك من الفوارق الكبيرة
ما يحول دون تحقيقه فهو لا يتم في أيام بل لا بد له من قرون عدة
ولا بد للقيام بمثل هذا العمل من أمثال (ريشليو) و (بسمارك)
على أنهم لا قبل لهم به إلا إذا هيأته الأيام . ولقد يتأتى لبلد مثل إيطاليا
أن نصير فجأة دولة واحدة بتأثير العوامل الاستثنائية إلا أن
من الخطأ الاعتقاد بأنها تنال بهذا روحاً ملياً . وأنا لا أزال أرى
في إيطاليا هذا (البييمونتي) وذاك (الصقلي) وذلك (البندقي)
و (الروماني) وغيرهم ولا يكتفي لا أرى (الايتالي)

كل أمة دخلت في ميدان الحضارة وأصبحت ذات تاريخ
قديم يجب اعتبارها أمة صناعية لا أمة طبيعية مهما كانت حالها
أعني سواء اتحدت عناصرها أم لا . إذ الأمم الطبيعية لا يكاد
يكون لها وجود في العصر الحاضر اللهم إلا في البلاد المتوحشة
هناك يتيسر العثور على أمم خالية من الخليط . وأما أكثر الأمم
المتحضرة الآن فأمم تاريخية

وليس من موضوعنا أن نبحث في أصل الأمم فسواء عندنا
كونتها الطبيعة أو التاريخ . وإنما الذي يهمنا منها هي الصفات
التي حدثت لكل واحدة منها بمرور الزمان الطويل عليها واستقرت
عدة قرون في أحوال واحدة وتجددت بالتناسل جيلاً بعد جيل
وأصبحت ثابتة ثباتاً كبيراً وصلحت لتمييز كل أمة عن أختها

الفصل الثاني

حدود تغيير أخلاق الامة

تغير خاق الامة هو القاعدة الطاهرة الثبات — سبب ذلك — ثبات
الحلق الأصلى وتغير الخاق الثانوى — مقابلة الصفات النفسية بالصفات الحيوانية
الثابتة والصفات المعيرة — فى أن تأثير البيئة والحوادث والتربية قاصر على
الصفات النفسية الثانوية — تطور الصفات — أمثلة لذلك فى أزمان مختلفة —
رجال الهول الأكر — ماذا كان يكون شأنهم فى زمن غير زمانهم — كيف
ان الصفات القومية تبقى بعد الثورة — أمثلة مختلفة — الخلاصة

انعام النظر فى تطور حضارة الأمم هو الذى يدان على درجة
ثبات مزاجها المعلى . وأول ما خيل للباحث أن القاعدة العامة
فى ذلك هى التغيير لا الدوام . فمن لم يقرأ التاريخ بامعان يظهر له
أن روح الامة قابل فى بعض الاحيان لتغير عظيم سريع .
والكافة يحسبون أن هناك فرقاً كبيراً بين صفات الانجليزى
فى عهد (كرامويل) وصفاته فى العصر الحاضر وكذلك بين التليانى
الحاضر ذى الحذر والحيلة وبين التليانى المندفع المفترس الذى

يصفه « يتفينتوساليتي » وعندنا ماهو أقرب من ذلك أريد
فرنسا . فكم من تغير ظاهري حدث في صفاتنا منذ عدد قليل
من القرون بل من السنين . وأى مؤرخ لم يشر إلى الفرق الموجود
بين خلق الأمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر . كذلك
يشاهد فرق عظيم في أيامنا بين وحوش العهد ^(١) وعبيد نابليون
الطائمين وأولئك هم هؤلاء ، ولكن يخيّل أنهم بدلوا بآخرين
في بضع سنين

ولكى نوضح أسباب هذه التغيرات ينبغي أن نذكر القراء
بأن النوع النفسى يتركب كالنوع الجسماني من صفات أساسه
ثابتة قليلة العدد وأن بجانب هذه الصفات صفات أخرى ثانوية
متغيرة وقابلة للتحول . فالنور يتغير ظاهره بالعلف والزهر ينكيف
بفعل البستاني حتى تغيب حميمته عن غير ذى الخبرة والنور
والزهر لا يزالان كما كانا من حيث صفات النوع الأساسية وإنما
كان التغير في صفاته الثانوية . ولا تزال الصفات الأولى ميالة على
الدوام إلى الظهور في كل نسل جديد بالرغم من جميع الحيل إلى
يعالج النوع بها

كذلك للمزاج العقلى صفات أساسية ثابتة كصفات الأنواع

(١) يريد هريفاً من العرساويين إداروا الحكومة رسماً أيام الثورة
وكانوا قساة

الجسمانية . وله أيضاً صفات ثانوية تتغير بالسهولة وهذه الأخيرة هي التي تتأثر بفعل البيئة والحوادث والتربية وغير ذلك من العوامل ولا ينبغي عنا أمر مهم في هذا الموضوع ذلك أن للمزاج العقلي مقدورات وإن شئت فقل قابليات أخلاقية لا تظهر في كثير من الاوقات لعدم ملائمة الاحوال لظهورها . فإذا اصطاحت تلك الاحوال ظهر من خلالها شخصية جديدة في الامة لكنها عرضية لا تدوم إلا وقتاً محدوداً . لذلك شوهد في أيام المحن الدينية والسياسية الكبرى أن الامة ظهرت بمظهر جديد يخيل للناظرين أنه ناشئ من تغير عظيم في خلفها الملى كأن انقلاباً حصل في أخلاقها وأفكارها وحركتها إلا أنه تغير عرضي مالبث أن زال . والذي خيل في بادئ الأمر كان طارئاً كما يضطرب وجه البحيرة الهادئة من فعل العاصفة ولا يدوم هذا الاضطراب زمناً طويلاً

والقابليات التي ظهرت في بعض الأزمان بفعل الحوادث الاستثنائية هي التي مثلت لنا الذين لعبوا دوراً مشهوداً في الانقلابات السياسية والدينية كأنهم مخلوقون من طينة أخرى فكأنوا في نظرها عمالة ونسب أبناءهم الفاسدون . وما كانوا إلا رجالاً مثلنا صادفتهم حوادث حركت فيهم تلك القابليات التي نشترك معهم فيها . مثال ذلك غيلان (العهد) الدين وقفوا في وجه أوروبا المدججة فقد بلغت منهم قساوة القاب إلى أنهم كانوا يمدمون خصومهم

إلى القصة لأدنى خلف بينهم وهم في الحقيقة أناس من أواسط
الامة الطيبين أولى الشكينة مثلاً ولو لا الزمان لو وجدناهم مطمئنين
إلى صناعتهم أو تجارتهم أو زراعتهم أو الحرفة التي كانوا فيها من
قبل يعملون . لكن حوادث بخارقة أثارت في أممناهم بعض
الخلل التي كانت هادئة في الزمن العادي فبرزوا في تلك الصورة
الهائلة التي يقصر السلف عن إدراكها ولو أن « روبسبير » وجد
بعد مائة عام من زمنه لكان قاضياً من أتقى قضاة الصلح صديقاً
لشمالس قرينته وكذلك « فوكيه تينفيل » كان يكون قاضياً للتحقيق
يطارد الجناة ويشد الخناق على المجرمين بصرامة أكبر وقساوة
أعظم مما كان عليه أقرانه و « سان جوست » كان يكون معلماً
ماهرًا في المدرسة ذا حرمة لدى الرؤساء نفوراً بنیشان المجمع
العلمي الذي كان يحوزه بلا محالة . وحتى لا يكون في نفس القارىء
شك من صحة هذه الفرضيات يكفي أن نلقته الى مافعل نابليون
بأولئك الوحوش الذي لم يمهلهم الزمان ليقتل بعضهم بعضاً فقد
كان من أمرهم معه أن صار أغلبهم عمالاً في أقلام كتاب المصالح
ومحصلين وقضاة ومديرين لان الامواج التي هاجتها العاصفة
التي أشرنا اليها كانت قد سكنت وعادت البحيرة المضطربة الى هدوها
لاتغير صفات الامة الاساسية حتى في أشد أوقات الاضطراب

والحن التي تظهر فيها الامة بمظهر التغير الكلي في شخصيتها
وغاية ما هناك أن تلك الصفات تبدو في ثوب غير ثوبها الاول فلما
أراد أهل الثورة أن يقضوا على طريقة الحكم السابق وصعوا
للأمة نظاماً قبضت فيه السلطة العليا على جميع اختصاصات
الحاكمين فكان روح نظامهم هذا متفقاً مع روح النظام الاستبدادي
المنبئ على الأثرة وجمع السلطة في اليد العليا وهو الذي امتزج
بروح فرنسا في عهد ملوكها المطلقين مدى خمسة عشر قرناً
فما من ثورة قامت في البلاد اللاتينية إلا وظهر خلفها ذلك
النظام العتيق وبعبارة أخرى ذلك الميل المتأصل العضال أريد ميل
النفوس الى الخنوع لحاكم قادر . والسبب في ذلك ثبات جذور
ذلك الميل في النفوس حتى أصبح جزءاً من روح الأمة . ولولا
هذا الروح لما ساد نابوليون بهاء الفتوحات التي جرت على يده .
ألا نرى أنه لما استعاض الجمهوريه بسيطرته أخذت صفات الأمة
الوراثية تظهر كل يوم بقوة أشد وكان لا بد من ذلك فلا ولم يقم
بالأمر حينئذ ذلك الضابط المدرب لعام به واحد من الافاقين
وبعد مضي خمسين عاماً قام وارث اسمه فما طهر في الناس حتى
صبوا اليه أجمعين والتفت حوله أمة تعبت من الحرية وتلهفت على
الاسترفاق . إذن ليس شهر « برميير » (١) هو الذي أقام صرح

(١) اسم الشهر الذي حصل فيه الانقلاب

نابليون اسكنه روح أمته التي أقيمت راحة أمام قدميه الخديتين (١) والسبب في أن أثر البيئة في الإنسان يظهر عظيمًا هو كون محله الصفات الثانوية الوقتية أو هي العائليات الأخلاقية التي سبقت الإشارة إليها ، فالتغير ليس جوهرًا بدليل أن أخلد الناس إلى السكينة إذا عضه الجوع أصبح لا يبقى على شيء ولا يحجم أمام أية جريمة كانت بل ربما افرس مثيله ولا يقال مع ذلك أن طبعه الأصلي تبدل بطبع جديد

إذا نتج عن الحضارة في الأمة أن صار أفرادها في نوبة طائلة ومالوا إلى اللذات والشهوات التي هي أثر من آثار الغنى وتولد في الآخرين حاجات كبيرة من دون أن يكون لهم من الوسائل ما يسدونها به ، إذا تم ذلك استاء الناس وتولاهم الحرج وتأثرت

(١) كسب (تاني) يقول «ما محرك حركته الأولى حتى حرالمرساويون ركامًا طائعين واقاموا على ذلك كما يقيم الرء على حاله الفطرى فأما الأصاغر من حد وفلاحين فقد أشبهوا الحيوان في احلامه واما الأكابر من اولى الرتب وأرباب الوطائف منهم استدلوا دلة البيراعامين وما قاوم الجمهوريون أدليل انه اتحد من بين صفوفهم أصحاب الوسائل لتأييد سلطانهم وكان له منهم الأعيان في مجلسهم وامواب في ندوتهم ومستشارو الدولة وقصاة المحاكم والولاة من جميع الجامعات . ادرك من اول نظرة في بقايا حريتهم وسلاواتهم ما فيهم من الميل إلى اساطلة وحب الاستعلاء والتفوق حتى وهم مسودون وعرف حسمهم للمال وانطب عليهم على اللذات سنان في ذلك المعصوفى جمعية سلامة الأمة والورير والمدير وحكام الأقطار ولكل رجل واحد في ثوبين ثوب فطرى وثوب مرر كس»

حركة الامة وحدثت انقلابات من صنوف شتى لكن صفات
الامة الاساسية تبقى يادية وسط هذا الاستياء وتلك الانقلابات
بدليل أن انجليز الولايات المتحدة أظهروا في حروبهم الاهلية
ما امتازوا به من المتابعة وقوة العزيمة كما هم يظهرون ذلك الآن
في تخطيط المدن وانشاء المدارس الجامعة والمصانع الكبرى فالصفة
لم تتغير وإنما الذي تغير هو محل ظهورها

والخلاصة إننا إذا نظرنا الى جميع العوامل التي لها تأثير
في مزاج الامة العقل رأينا ذلك التأثير دائماً في الوجهة الثانوية
منه وقلمما يكون في مميزاته الاساسية وإذا أثر فيها فذلك لا يظهر
إلا إذا دام المؤثر زمناً طويلاً ، ولسنا نذهب الى أن صفات الامم
النفسية غير قابلة للتغيير ، بل الذي نريد تهريبه هو أن تلك الصفات
على درجة كبيرة من الثبات وأن مثلها في ذلك مثل الصفات
الجسمانية وأن هذا الثبات هو العلة في بقاء تجول خلق الامة
في بطون الليالي والايام

الفصل الثالث

الطبقات النفسية للأمم

تقسيم الأمم النفسى كالتقسيم الطبيعى مبنى على بعض صفات أصلية ثالثة —
فى بيان تقسيم الأمم النفسى — الأمم الأولى — الأمم الديبا الأمم
الوسطى — الأمم العليا (الراقية) — العاصر النفسى التى بى عليها هذا
التقسيم — الخلق — الأدب — فى أن الصفات العقلية تتغير بالربية — فى
أن الصفات الأخلاقية ثابتة وهى العصر عر القابل للتعرف فى الأمة — شأن تلك
الصفات فى التاريخ — السبب فى أن الأمم المختلفة لا تتفاهم ولا تتأثر الواحدة
مها بالأخرى — السبب فى استحالة عرس حضارة أمة راقية فى أمة واطئة

إذا راجعنا فى أحد كتب التاريخ الطبيعى قواعد تقسيم
الأنواع علمنا أن الصفات الثالثة أى الأساسية التى يبنى عليها
ذلك التقسيم قليلة العدد جداً يكفى بعض أسطر اسردها . وسببه
أن العلماء لا يعتمدون فى ذلك إلا على الصفات التى لا تتغير
ولا يلتفتون إلى الصفات الثانوية مهما كثرت وكانت منتزعة منها
كذلك الحال فى صفات الأمم النفسية فإذا بحثنا فى التفاصيل

وجدنا فروقا كثيرة بين فرد وآخر وأمة وأمة . وإذا رجعنا الى الصفات الأولية وحدها رأيناها قليلة . وسنأتى بأمثلة توضح كيف أن تلك الصفات القليلة هي التي تؤثر في حياة الامم ولما كان بيان قواعد تقسيم الامم النفسية متوقفا على البحث في الاحوال النفسية لكل أمة وذلك يقتضى وضع مؤلفات كثيرة فقد اقتصرنا هنا على بيان تلك القواعد بوجه عام

تنقسم الامم من حيث صفاتها الاخلاقية العامة إلى أربعة أقسام . الامم الاولى — الامم الدنيا — الامم الوسطى — الأمم الراقية

والأمم الاولى هي التي لا أثر للتعليم عندها بل بقيت في طورها القريب من الحيوانية وهو الطور الذي قطعه أجدادنا في دورهم الحجري القديم ويحمل تلك الأمم في هذه الايام بأهل (فويجيان)^(١) واسراليا

ويلى تلك الأمم الامم الدنيا . وأخص مثالها الزنوج وفيهم بصيص حضارة لكن ليس عندهم أكثر من بصيص وتاريخهم يدل على أنهم لم يتمكنوا من الارتقاء إلى أكثر من حضارة

(١) احدى جزر الرأس الأحمر بالمحيط الاطلسي وسكانها

بربرية وإن ورتوا في بعض الأحوال عن غيرهم حضارة أرقى كما
وقع لاهل (دومينيغ) (١)

ثم الأمم الوسطى وهى الصين واليابان والمغول والأم
السامية . وهذه الأمم بلغت من الحضارة درجة راقية لم يفهم
فيها غير الأمم الأوروبية الراقية فلا يندرج فيها إلا الأمم الهندوسية
الأوروبية قهى وحدها التى أظهرت مقدرة على الاختراعات
فى الفنون والعلوم والصناعة سواء كان ذلك فى الزمن القديم زمن
اليونان والرومان أو فى عصرنا هذا وهى التى أوصلت الحضارة إلى
درجة ارتقائها الحالى وهى التى اكتشفت البخار والكهرباء .
وأقل هذه الأمم ارتقاء كالهندوس على الاخص بلغت من الفنون
وعلوم الادب والفلسفة حداً لم تتمكن أمم المغول والصين ولا
الأمم السامية من اللحاق بهم فيه

تتماز هذه الأقسام الأربعة عن بعضها بحيث لا يخطئ
أحد فى تمييزها فإن النباين العقلى بين بعضها والبعض الآخر
واضح جلى . وإنما الصعوبة تبدو عندما يراد تقسيم أمم كل قسم
إلى أنواع وفروع . فالإنجليزى والأسباني والروسى من الأمم
الراقية ولكننا نعلم أن الفرق عظيم بين هؤلاء وهؤلاء
ومن أراد استجلاء هذه الفروق ينبغى له أن يعرر حقيقة

(١) جزيرة أخرى فى المحيط المذكور

خلق كل أمة على حدتها . وسنعمل ذلك في أمتين على سبيل التمثيل
لهذه النظرية ولبیان أهمية أثرها مكثفين في ذلك بیان حقيقة
العناصر النفسية الرئيسية التي توصلنا إلى التفرقة بين بعض الشعوب
والبعض الآخر

مما يشاهد دائماً في الأمم الأولى والدنيا عدم قدرتها على
التعامل مع تفاوت في ذلك . وأعني بذلك قدرة الذهن على جمع
الأفكار المتحصلة من المحسوسات السابقة أو الالفاظ التي تدل
عابها ومقاباتها بالأفكار المتحصلة من المحسوسات الحالية واستجلاء
الفرق بين الحائين . واستغنى حاجة إلى أن نذهب إلى التوحشين
لستق بثلک الأمم لأن الطبقات النازلة عند الأمم الأوروبية نفسها
شبيهة بالأمم الأولى شبيهاً كاملاً . وسبب عدم القدرة على التعامل
عند تلك الأمم سرعة التصديق وفقدان ملكة النقد فعداناً تاماً
بخلاف الإنسان الراقى فإن ملكة جمع الأفكار واستخلاص نتائجها
قوية فيه وملكة النقد وتحرير المعقول نامية للغاية

كذلك نرى ملكة التنبه والتأمل ضعيفة جداً في الأمم الدنيا
وملكة التقليد نامية جداً . ومن عاداتهم استنتاج النتائج الباطلة
العامة من الجزئيات وهم ضعاف في النظر وفي استجلاء نتائج
الاستعراء وأخلاقهم متعالية وعدم تبصرهم عظيم وقاعدة عماهم

ما يعرض لهم من الالهام وقت العمل فمثلهم مثل (عيسوى) (١)
 يبيعون عن طيب خاطر حقوق البكورة الآجلة بطبق من
 العدس العاجل . انما يخطر الانسان خطوة كبيرة في سبيل رقيه
 متى تمكن من ردّ منفعة عاجلة لمنفعة آجلة وجعل نفسه غرضاً
 ثم أقام في طلبه

وعدم القدرة على تصور النتائج البعيدة المرتبة على الاعمال
 والميل الى الاسترشاد بالهام الساعة الى يوجد المرء فيها يقضيان
 عليه كما يقضيان على الأمة كلها بالبقاء في حاله التأخر . وهما
 لا يخرجان من تلك الحال الا اذا تمكنا من الحكم على ميولهما
 وبعبارة ثانية اذا اكتسبنا ارادة يتمكنا من امتلاك نفسيهما
 هنالك تصل الأمة الى فهم معنى للنظام وضرورة التضحية في
 سبيل مطلب معروف والصعود على سلم الحضارة ولو أنى سئلت
 عن مقياس يقاس به مستوى كل أمة بالنسبة لغيرها منذ عرف
 التاريخ لأشرت الى درجة اقتدار كل أمة على حكم نزعاتها
 اللاتذبية ونقلت ان الرومان في العصور الخالية والانكليز
 والأمريكان في الزمن الحاضر هما الأمتان اللتان بلغت فيهما هذه

« ١ » هو من ولد اسحاق وليدة ١٨٣٦ قبل المسيح وكان اكرا حوته
 ذهب للمسد دات يوم فعصه الحوج ولقي بأحبه وكان يحمل طبقاً من العدس
 وشراه منه مقابل تمارله له عن حقوق لاؤونة تن له ثمة من كونه بكرأسه

المقدرة منهاها وقد كان لها شأن كبير جداً فيها وصلاً إليه من
الارتقاء والعظمة

قلنا ان المزاج العقلي نتيجة مجموع العناصر النفسية التي قدمنا
ذكرها ودرجة نمو ذلك المجموع وان ذلك المزاج هو الوسيلة في
تمييز الأفراد والأمم

ومن تلك العناصر النفسية ما هو راجع الخلق ومنها ما هو
راجع الى الدكاء

فأما الأم الراقية فتفرق عن غيرها في الامرين ولكن
الفارق الأساسي بين أنواع هذه الأم الراقية هو الخلق . تلك
نظرية أهمية اجتماعية كبرى . لذلك وجب أن نوفي القول في بيانها
تكوين الخلق من اجتماع بعض العناصر المخصوصة

وامتزاجها ببعضها . وتلك العاصم هي التي جرى علماء النفس في
هذا المصير على تسميتها بالمشاعر . وأهم المشاعر في تكوين الخلق
المثابرة وقوة العزيمة والقدرة على حكم النفس وكلها ملكات
راجعة الى الادارة . وبذكر أيضاً من تلك العوامل الأساسية
الأدب وان كان هو فينا خلاصة مشاعر مختلفة . ونريد بالأدب
ذلك الاحترام الوراثي للنواميس التي تقوم عليها حياة الأمة
فمعنى كون الأمة ذات أدب أن لها قواعد ثابتة يسير عليها وأنه
لا تنفك عن مراعاة تلك القواعد وهذه القواعد تتغير بتغير

الأزمان والأمكنة . ومن ذلك يظهر أن الأدب متغير وهو في الواقع كذلك . وإنما الذي يجب له هو أن تلزمه الأمة الواحدة في الزمن المعين . والأدب ابن الخلق فهو لا يثبت إلا إذا صار وراثياً أعني غير تنبهي . وعظمة الأمة تابعة على وجه العموم لدرجة ارتقاء الأدب فيها

والصفات العقلية قابلية صغيرة للتغير بتأثير التربية . وأما الصفات الأخلاقية فيكاد أن لا يكون للتربية أثر فيها وإذا أثرت ففي ذوي الطباع الهينة أي الذين لا إرادة لهم فهم يميلون إلى حيث يوجهون . ويكثر وجود هذه الطبائع الهينة في الأفراد ولكنها قلما توجد في أمة بأكملها . وإذا شوهدت في أمة من الأمم فأنما يكون ذلك في أيام سقوطها

تنتقل الاكتشافات العقلية بالسهولة من أمة إلى أخرى وأما آثار الخلق فلا تتعدى أمتها . لأنها العناصر الأساسية الثابتة التي يتميز بها المزاج العقلي في كل أمة راقية . ومن هنا كانت الاكتشافات العقلية ملكاً شائعاً للإنسان أتي وجد . وأما آثار خلق كل أمة طيبة كانت أو رديئة فخاصة بالأمة التي هي فيها ومثل الخلق مثل الصخرة لا تؤثر فيها الأمواج على تعاقب الأيام إلا قليلاً في حاقها والخلق شبيه بالعنصر الثابت لكل نوع من أنواع الكائنات كمسبح الأسماك ومنقار الطير ومن الحيوان المفترس

خلق كل أمة هو علة تطورها في حياتها وهو الذي يقرر
مستقبلها وهو موجود على الدوام خلف العوامل التي فرضها الناس
سبباً لأعمالهم فقالوا بالاتفاق وهو لا حول له ولا قوة وبالرحمة
وهي أمر خيالي وبالمقدور المحقق وهكذا مما اتخذته الأمم ناموساً
في حياتها على حسب اختلاف المعتقدات

تأثير الخلق في حياة الأمم عظيم . وأما تأثير العقل فضعيف
على تفاوت فيه . ولقد كان الزمان أيام سقوطهم ثوى عقول أرقى
من عقول أجدادهم القاهرين ولكنهم سقطوا لأنهم فقدوا
صفاتهم الأخلاقية فأضاعوا الثابرة والعزيمة والجلد الذي لا يعرف
الوهن وفقدوا القدرة على التفاني في نصرة المطلب واحترام القوانين
إلى حد التقديس . وتلك الصفات هي التي كانت السبب في عظمة
آبائهم الأولين

الخلق هو الذي يمكن سنين ألف التحليزي من إخضاع مائتين
وخمسين مايوناً من الهنود وكثير من هؤلاء في مستوى واحد
معهم من حيث العقل وبعضهم يفوقونهم جداً في الفنون الراقية
وغور المباحث الفلسفية والخلق هو الذي جعلهم على رأس مملكة
استعمارية هائلة لم يعرف التاريخ نظيراً لها حتى الآن

الخلق لا العقل هو الذي تقوم عليه الجمعيات البشرية
وتؤسس الديانات وتبني الممالك وهو الذي يجعل الأمم تحس وتعمل

وما كان كسب الأمم كثيراً من شغل الأذهان والتعمق في التفكير (١)

للزاج العقلي هو الذي يرشد الأمة الى تكوين فكرتها في الوجود وفي الحياة وعلى حسب صورة ذلك عندها تختط لنفسها طريقاً تسير فيه وسنأتي فيما بعد بأمثلة تقرب ذلك الى الأذهان . كل انسان يتأثر بالأشياء الخارجة عنه تأثراً خاصاً به فيتولد فيه من ذلك شعور خاص وفكر خاص ويندفع الى العمل على نحو خاص مخالفاً في هذا كله ما يجري عليه غيره

« ١ » السبب في شدة ضعف اعمال علماء النفس الذين اتخذوا هذا العلم صاعاً لهم وقلة آثارهم العملية هو على الأخص قصرهم مباحثهم على المسائل العقلية وانصرافهم عن البحث في المسائل الاخلاقية وكأنني لا اعرف ممن اشار الى اهمية الخلق وكونه اصلاً في تكوين مراجع الأمم العقلية غير موسيو « بولهان » في رسالة « الاخلاق » وموسو « ريبو » في وريقات جاءت لسوء الحظ قصيرة جداً . قال هذا العلامة الأستاذ بمدرسة فرنسا « انما الداء صورة ثانوية من صور تطور العقل والمصر الأساسي هو الخلق ونتيجة الأول ادعى عموماً كثيراً اعدام الخلق عالياً فسمى لبيان احوال الأمم النفسية ومقارنتها بعضها ان يديم البحث في الخلق كما ذهبوا اليه لان اهمية هذا العلم لا تحصى فهو مصدر تاريخ الأمم ومرشد سواسيات ولولا انه لا يزال في المعامل الكيماوية ولا يوجد في مطون الكتب واما يبال بالأشعار الطويلة والوقوف على احوال الأمم لكان من المحب العجائب ان العلماء لم يشتعلوا بتدوينه الى اليوم بل ليس هناك ما يدل على قرب اشتعال مصبى علم النفس به . فبهم يتركون الآن شيئاً فشيئاً ما عكفوا عليه من قبل ويقصرون انماهم على مسائل تتعلق بعلمى التشريح والفسيولوجية »

فما يفرق عنه في مزاجه العقلي . وينتج من ذلك أن من اختلفوا
 في أمر جهنم العقلية لا يتأتى لبعضهم أن يدرك كنه بعض .
 واختلاف الأخلاق هو علة استمرار التنافر بين الأمم ومن المتعذر
 استفادة شيء من التاريخ إذا لم يكن طالب الفائدة عاكفاً أن الأمم
 المختلفة لا تشترك مع بعضها في الشعور ولا في العقول ولا في
 العمل وأنه لذلك لا يتأتى لبعضها أن يفهم بعضاً . نعم في لغات
 الأمم المختلفة ألفاظ متشابهات يظنونها مرادفات غير أن تلك
 الألفاظ على اشتراكها تحدث في نفس كل أمة مشاعر وأفكاراً
 ومعقولات غير ماثيرة من ذلك في الأخرى ولا يعرف الإنسان
 مقدار الفرق العظيم بين أفكار الأمم المختلفة إلا إذا طالت عشرته
 لقوم غير قومه حتى ولو لم يعرف منهم إلا من تكلم لغته وتربى تربيته .
 ويمكن الوقوف على ذلك أيضاً من غير اغتراب بالمقارنة بين الرجل
 المتحضر وبين المرأة المتحضرة ومعرفة الفرق العظيم بينهما من الجهة
 العقلية وهما ارتقت درجة المرأة في التعليم يرى الباحث أنهما قد
 يشتركان في المصالح ويتحدان في المشاعر ولكنهما لا يتفقان
 مطلقاً في تسلسل المعقولات وقد يتحدان قروناً ولا يتفقان لأن
 لكل واحد منهما مزاجاً يخالف مزاج الآخر مخالفة تامة فلا يتأثر
 بالاشياء الخارجة عنه كما يتأثر رفيقه . ولو لم يكن بينهما من الفروق
 إلا اختلاف معقوليهما لكفى بذلك مانعاً من الاتفاق

لذلك الفرق العظيم في المزاج العقلي هو الذي يوضح علم
 عدم نجاح الأمم الراقية في نقل حضارتها إلى أم أدنى منها
 قال أصحاب سيادة العقل الصرّف أن التعليم يتجفع في هذا
 السبيل ولا يزال قلوبهم مرعياً لدى الكافة ولست أعرف لهؤلاء
 الفلاسفة مذهباً أسوأ تأثيراً من هذا الرأي ولا أشدّ ضرراً .
 نعم يجوز أن يحرز أخطأ الأفراد في سلم الانسانية جميع معلومات
 الأوروبي كلها بما قد يوجد فيه من قوة الحافظة التي اختص بها
 الأفراد الأدنى وليست هي من مميزات الرجال ومن المسلم أن
 نيل الزنجي أو الياباني الشهادة الثانوية أو رتبة المحاماة أمر ميسور
 ولكنه لا ينال بذلك الاطلاع سطحياً لا تأثيره في مزاجه العقلي
 وأما كفايات التفكير والمعقولة وعلى الاخص أخلاق الغربيين
 فليس في قدرة التعليم معها كان أن يحصلها له لأنها لا تنال إلا بالوراثة
 ولذلك الزنجي أو هذا الياباني أن ينال جميع الشهادات الممكنة
 لكنه لن يرقى مطلقاً بذلك إلى صف الأوروبي العادي . ففي عشر
 سنين يمكن تلقينه التعليم الذي يتلقاه انكليزي تام التهذيب ولكن
 ألف سنة قد لا تكفي لصيرورته انكليزياً حقيقياً أعني رجلاً يعمل
 كما يعمل الانكليزي في جميع أطوار الحياة . وعليه إذا غيرت أمة
 بسهولة لغتها أو نظامها أو معتقداتها أو فنونها فانما يكون التغيير
 سطحياً ولا يكون جوهرياً إلا إذا تيسر لها أولاً تغيير روحها

الفصل الرابع

درجة الفروق بين الأفراد والأمة

كلما ارتقت الأمة عظمت الفروق بين أفرادها واليعض الآخر — في أن
أفراد الأمم الدنيا متساوون في القوة العاقلة — لاجل معرفة الفروق بين الأمم
يجب أن تكون المقارنة بين طبقاتها العليا لا الوسطى — في أن تقدم الحضارة
يريد في الفروق التي بين الأفراد والتي بين الأمم — نتيجة هذا الفارق —
في الأسباب النفسية التي تمنع اتساع هذا الفارق — في أن الفرق عظيم جداً
بين أفراد الأمم الراقية من حيث القوة العاقلة وضعيف جداً من حيث الخلق —
في أن الوراثة تميل دائماً بالأفراد الراقية الى المثال الوسط في الأمة — في
المشاهدات التشريحية التي تؤيد تدرج الفروق النفسية بين الأمم وبين الأفراد
وبين الأنواع « الذكر والانثى »

لا تمتاز تلك الأمم الراقية عن الأمم الدنيا بالصفات النفسية
والجسمانية وحدها بل تمتاز عنها أيضاً باختلاف العناصر التي تدخل
في تكوين كل أمة . فمستوى العقل يكاد يكون واحداً عند جميع
أفراد الأمم الدنيا ذكوراً وأنثاء وتشابههم في ذلك يعطى مجموعهم
مسحة المساواة التامة التي يحلم بها الاشتراكيون في هذا الزمان

وأما عند الأمم الراقية فالقاعدة هي اختلاف الافراد وكذا النوع
اختلافاً كبيراً

ومن أجل ذلك لا يصح قياس الفروق بين الأمم بطبقاتها
الوسطى بل بالعليا ان وجدت . اذ الفرق ضعيف بين الطبقات
الوسطى في أمم الصين والهند وأوروبا من حيث العمل وهو
جسيم بين طبقاتها العليا

وكما تقدمت الحضارة اتسعت دائرة الفروق بين الأمم
وبين أفراد كل أمة وعلى الأخص أفراد الأمم الراقية . فشرة
المدنية والحضارة هي على الضد من آمالنا تزيد الفروق بين
الناس من حيث العقل ولا تميل بهم الى المساواة أبداً

ومن أخص آثار المدنية ان يحد الفرق بين بعض الأمم وبعضها
وبين طبقات كل أمة راقية لما تضطر اليه كل واحدة من الأعمال
العقلية كلما ارتقت حضارتها والمشاهد أن تلك الأعمال في ازدياد
مستمر

انظر الى تطور الصنائه تراه يقضى على الطبقات النازله في
الأمم المتحصرة بالبقاء على عمل محدود جداً ليس فيه ما يزيد من
قوتهم العاقلة بل هو يؤدي الى اضعافها . واقد كان العامل منذ
مائة عام أستاذاً ماهراً يقدر على صنع آلات الساعة بأكملها مثلاً

فأصبح اليوم آلة تحرك غيرها . ثم هو لا يعمل إلا في قطعة واحدة فتفنى حياته في خرق الخروق بعينها أو جلاء القطعة بذاتها أو إدارة الآلة الواحدة . وينتج من ذلك سرعة انطفاء القوة العاقلة فيه . وأما صاحب المصنع أو المهندس الذي يستصنع ذلك العامل فان أحوال المسابقة والاكتشافات تدفعه الى تحصيل المعلومات الكثيرة وتولد فيه من الهمة الداتية وتنمي عنده من قوة الاستنباط أكثر مما كان يحتاجه منذ قرن من الزمان . ولما كان عقله يعمل على الدوام فإنه يزداد على الدوام طبقاً لناموس وظائف الاعضاء

أشار (توكفيل) الى تدرج الفروق الذي نبه فيه بين طبقات الأمم في زمن لم تبلغ الصناعة فيه من الارتقاء مبلغها في الوقت الحاضر فقال « كلما توسع الناس في تطبيق قانون توزيع العمل ضعفت قوة العامل وخذ عقله وزادت تابعيته لغيره فالصناعة تتقدم والصانع يتأخر والفرق ينمو كل يوم بين العامل ورئيسه » تشبه الأمة الراقية في هذا العصر من حيث العقل هرمياً له درج . الجموع النازلة كتلته العظمى والطبقات السامية

المدارك قسمه الأعلى (١) وفي الذرة ترى النبغاء من العلماء
وأصحاب الاكتشافات وأساتذة الفنون والكتاب وهو لا طائفة
صغيرة جداً بالنظر لمجموع الأمة ولكنهم هم الذين يقاس بهم
مستوى البلاد العقلي في سلم المدنية . فما أصدق قول (سان سيمون)
« إذا أضعفت فرنسا الحسنيين الأول من علمائها ومثل ذلك من
أهل فنها وصناعاتها ووزرائها قطعت رأس الأمة وأصبحت جسماً
بلا روح ولكنها إذا فقدت جميع موظفيها الرسميين فإن تلك
الحادثة تحزن الفرنسيين لطيب نفوسهم ولكنه لا ينجم في
البلاد لذلك من الضرر إلا اليسير »

كلما ارتقت الحضارة زادت سرعة اتساع الفروق بين طبقات
الأمة وربما بلغت تلك السرعة نسبة المتوالية الهندسية المعروفة
في علم الحساب . ولولا أن الوراثة تحول دون تعاظمها لوصل

« ١ » قلت السامية المدارك ولم اصف المتعلمة لأن من الخطأ الذي جرت
عليه الأمم اللاتينية خاصة الاعتقاد بوجود نسبة بين العلم والدكاء يكفي في
التعلم أن يكون المتعلم على جانب من القوة الحافظة ولكه لا يستلزم شيئاً من
صفات القوة العاقلة أو القوة التصورية أو الهمة الذاتية أو قوة الاستساط . وكم
يلتقي الإنسان من جمع اليه من الشهادات شيئاً كبيراً وهو ذو عقل صغير وكم يلتقي
بغير متعلم يتوقد ذكاء وعليه فدرج هرمها العليا تتألف من عناصر جميع الطبقات في
جميع الحرف أفراد امتازوا بسمو المدارك ولكن الظاهر بحكم الوراثة أن عدد
اولئك المتفوقين يكثر في الطبقات الراقية وإن ذلك هو علة اسلاك الطبقات المذكورة

الفرق مع الزمن بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا الى مثل ما هو عليه بين الأبيض والأسود بل بين هذا وبين القرد .

والواقع أن هناك أسباباً كثيرة تعترض اتساع الهوة بين الفريقين بمقدار ما تؤدي اليه النظرية وحدها . أولها أن التمايز لا يحصل في غير القوة العقلية إلا قليلاً فلا يتناول الخلق أو هو لا يتناوله إلا بضعف شديد . وقد علمنا أن الشأن الأول في حياة الأمة للخلق لا للعقل . ثانيها أن الجموع سائرة في هذا الى القوة بما تنظم من شؤون نفسها والجموع تبغض المتفوقين على اختلاف أنواعهم بغضاً لا ينكره أحد . ومن المحتمل أنها اذا كمل نظامها تهدم كل قوة عقلية تعترضها كما أسقطت طائفة الاشراف مندمائة عام . ومتى عمت سيادة الاشتراكية في أوروبا فلا أمل لها بالبقاء بعض الزمن الا اذا أتت على كل من خصه الله بموهبة تميزه أقل تميز عن أدنى درجة الأواسط

هذان السببان عارضان لأيهما متولدان عن الحضارة والحضارة متغيرة بطبيعتها وهناك سبب أهم منهما يحول بين خيار النبغاء وبين سرعة افراقهم عن بقية طبقات أمتهم من الجهة العقلية . وأهميته آتية من كونه طبيعياً غير قابل للتغيير . وهو ناموس الوراثة القوي فانه يقضى بزوال من تتسع الهوة بينه وبين أواسط أمته أو يارجاعه الى ذلك الوسط . اذ المشاهدات القديمة

التي دونها جميع العلماء المشتغلين بالورثة تدل على أن نسل العائلات
رفيعة المدارك ينتهي في الغالب بالفساد ثم بالزوال التام عاجلاً أو
آجلاً . والعاجلة أرجح

وعليه يظهر أن سمو الإدراك في الرجل مقرون بفساد النسل
ولولا أن ذروة الهرم التي أشرنا إليها من قبل تتغذى على الدوام
من العناصر التي دونها لا تفرصت عن آخرها ولو جمع النبغاء من
كل طبقة وأسكنوا ناحية على حدة فتناسلوا اتولد منهم أمة
مصابة بالفساد ولا تلبث أن تزول . وما أشبه كبراء المتفوقين
في سمو المدارك بالنباتات ذات الضخامة الفاحشة التي ينمى بها
البستاني بحيلة الصناعية إذا تركت وشأنها ماتت أو رجعت إلى
حدها الوسط الذي هو العنصر الأقوى لأنه جماع ما ورث عن
الأجداد

والتأمل في أحوال الأمم يرى أن أفراد كل واحدة منها
وإن افرقوا كثيراً من جهة العمل يكادون لا يفرقون من جهة
الخلق الذي هو الصخرة الثابتة رغم تقلب الأزمان كما يمانه لذلك
ينبغي عند البحث في أحوال أمة أن ينظر إليها من جهتين فهي
لا قيمة لها من الجهة العقلية إلا بالنبغاء وهم قليلو العدد واليهم
يرجع رقي علومها وادبها وفنونها . فقيمة الأمة تقاس بطبقاتها
الوسطى دون غيرها لأن قوة الأمة تابعة لمستوى هذا الوسط .

فيجوز أن تستغنى الأم عن النبغاء في العقل ولكنها لا حياة لها إلا بالخلق . وسنبرهن على ذلك قريباً

ينتج مما تقدم أن الفروق من جهة العقل في نمو مستمر وأما الخلق فإنه يدور دائماً حول المثال الوسط . وهو الذي يرتقى رويداً رويداً وفيه يشترك السواد الأعظم من أهل كل أمة . ويرى هذا الأس المتين ولا سيما عند الأمم الراقية مكسواً بطبقة لطيفة من المدارك السامية . وتلك الكسوة هي إلى لها المقام الأول في تقدم الحضارة وارتقاء المدنية ولكنها لا أهمية لها من حيث التأثير في أصل الجنس وكأنني بها كسوة من اللباس فما أشبه الاثنين في البلاء والتجدد فطبقة النبغاء على الدوام في تحلل وعلى الدوام في تجدد والذى يبليها ويحددها هي الطبقة الوسطى التي لا تتغير إلا قليلاً جداً لأن أقل تحول فيها يقتضى تحدد الوراثة قروناً طويلة

ولقد وصلنا منذ بضع سنين من طريق البحث التشريحي إلى إثبات هذه الفروق التي ندلل عليها الآن من طريق البحث النفسى . ولما كان البحثان قد أديا إلى نتيجة واحدة فسأورد للقارئ بعض نتائج البحث الأول وهي مؤيدة بما أجرئته من قياس عدة آلاف من الجماع القديمة والحديثة لأفراد من أمم مختلفة . واليك أهمها دعلاً عن كتابنا (أبحاث تشريحية ورياضية

في اختلاف حجم المنح ونسبة ما بين ذلك ودرجة العقل (المطبوع
سنة ١٨٧٩ وهي رسالة قرظها المجمع العلمي وجمعية (الأنثروبولوجي):
« توجد نسبة كبيرة بين حجم الجمجمة وعقل صاحبها كما »
« ثبت ذلك من المشاهدات المتكررة وان اختلفت النسبة »
« المذكورة في بعض الأفراد . ويتبين للباحث أن الفارق بين »
« الأُم الدنيا والأُم الراقية ليس هو زيادة حجم جماجم أفراد »
« الأولى اذ هذا الفرق يسير بل هو وجود أنماخ نامية نمواً »
« كبيراً في أفراد الأولى وعدم هذا التنوع في أفراد الأُم »
« الدنيا حينئذ فالتمييز بين الأُم يكون بأحاديثها لا بجموعها »
« اذ الفرق الوسط في حجم الجمجمة ليس كبيراً بين أفراد أمة »
« وبين أفراد أخرى ما عدا الأُم الدنيا »

« واذا فابلنا بين جماجم الأجناس البشرية في الحاضر »
« والماضي وجدنا أن الأُمّة التي تكثر النروق بين جماجم أفرادها »
« من جهة الحجم هي الأرقى في حضارتها . وأنه كلما تقدمت »
« الحضارة ازدادت فروق الجماجم . وينتج من ذلك أن الحضارة »
« لا تسير بالناس الى المساواة العقلية بل الى التفاوت بينهم »
« في ذلك كثيراً . ولا توجد المساواة التدرجية والركيحية إلا »
« بين أفراد الأُم المنحطة . فالفرق يسير جداً بين قوم من »
« الهمج كلهم يعمل عمل أخيه . والفرق عظيم جداً بين الرارع »

« التي تنحصر بضاعته من اللغة في ثمانمائة كلمة وبين العالم الذي ،
« يعرف من ذلك مائة ألف وما يقابلها من المعاني »
« وينبغي أن نشير هنا الى أن الفرق الذي تحدثه المدنية »
« بين الأفراد مشاهد أيضاً بين الجنسين . فالرجل والمرأة »
« متساويان على التقريب من جهة العمل عند الام المنحطة وفي »
« الطبقات النازلة من الأم الراقية . ويظهر ذلك الفرق وينمو »
« كلما ارتقت الأمة في المدنية »

« ومن المشاهد أيضاً وجود فرق بين حجم جمجمة الرجل »
« وجمجمة المرأة تزداد سرعة نموه بتقدم المدنية . وذلك ثابت »
« حتى من مقارنة جماجم من انبعا في العمر والعامة والوزن كما »
« جربناه نحن . وهذه الفروق ضعيفه جداً في الأم المنحطة »
« وكبيرة جداً في الأم الراقية . وقلمنا يزيد حجم جماجم النساء »
« في الأم الراقية عن حجم جماجم نساء الأم المنحطة . فيينا »
« نشاهد أن متوسط حجم جماجم البارثين في الصف الاول »
« من النمو نرى متوسط حجم جماجم البارثينات مساوياً لأقل »
« حجم وقع تحت المشاهدة فهو يقرب من حجم جماجم »
« الصينيات ولا يزيد إلا بسيراً عن حجم جماجم نساء (كاليدويا »
« الجديدة) »

الفصل الخامس

تكوين الأمم التاريخية

كيف تكونت الأمم التاريخية — الاحوال التي تساعد على امتزاج شعوب مختلفة وتكوين امة واحدة — تأثير عدد افراد كل فريق من الفرق المحتمة واختلاف اخلاقهم وبيئتهم وهكذا — نتيجة التوالد — علة انحطاط درجة المولدين — عدم ثبات الاخلاق النفسية المتحصلة من التوالد — كيف تثبت تلك الاخلاق — ازمة التاريخ الحرجة — التوالد عامل قوى في تكوين الامم الحديثة وهو ايضاً عامل قوى في تحليل المدينة — اهمية نظام الطوائف — تأثير البيئات — في امها لا تؤثر الا في الامم الحديثة التي لا تزال في دور التكوين بعد ان يكون التوالد هكك عرى اخلاقها الموروثة — في انه لا تأثير لها في الأمم القديمة — امتلة شتى — في ان معظم الأمم التاريخية بأوروبا لا تزال في دور التكوين — نتائج ذلك السياسية والاجتماعية — السبب في قرب انقضاء زمن تكون الامم التاريخية

قدمنا أنه لم يبقَ بين الأمم المتحصرة شعوب حقيقية بالمعنى العامي . وأن الموجود الآن هو أم تاريخية تكونت اتفاقاً بتأثير الفتوحات والهجرة والسياسة وهكذا فهي حينئذ مركبة من أشخاص مختلجى الجنس أصلاً

والآن فنبحث في كيفية امتزاج الشعوب المختلفة وصيرورتها
أمة تاريخية ذات أخلاق نفسية واحدة

ونلاحظ أولاً أن بعض العناصر التي تجتمع اتفاقاً ببعضها
لا تبرز دائماً . فالشعوب الألمانية والهنكارية والسلافية وغيرها
من التي تعيش تحت الدولة النمساوية ممتازة عن بعضها امتيازاً تاماً
ولم تظهر فيها حتى الساعة ميلاً إلى الامتزاج . وكذا الأيرلندي
الخاضع لحكم انكلترة لا يزال حافظاً لكيانه وأما الأمم المنحطة
جداً كأصحاب الجلود الحمر (بوروج) و (الأستراليين) و (التسمانيين)
وغيرهم ففضلاً عن كونهم يمزجون بالأمم الراقية فانهم يقنون فيها
إذ دلت التجربة على أن كل أمة منحطة تزول باختلاطها مع أمة
راقية لا محالة

ولامتزاج الشعوب ببعضها بعض وصيرورتها أمة جديدة
متحدة اتحاداً تاماً ثلاثة شروط

الشرط الأول هو أن لا تكون الشعوب المتوالة مختلفة
العدد كثيراً . والثاني أن لا يكون الفرق في أخلاقها كبيراً .
والثالث أن تعيش زمناً طويلاً تحت تأثير عوامل بيئية واحدة
والشرط الأول أهم الثلاثة . فإذا نزع عدد قليل من البيض
وأقام بين الزنوج في فيهم ولم يترك من دمه أثراً في نسله .

وهكذا فني الفاتحون الذين أقاموا في أم كثيرة العدد . وقد ترك
اللاتينيون في بلاد (الغلوا) والعرب في مصر حضارتهم وقنونهم
ولغتهم ولكنهم لم يتركوا دهم

وللسبب الثاني أيضاً أهمية كبيرة . نعم يجوز أن يكون
الفرق بين الشعبين المجتمعين كبيراً ومع ذلك يمتزج أحدهما
بالآخر كالأبيض والأسود غير أنه لا يتكوّن من المولدين إلا
أمة منحلة انحطاطاً كبيراً بحيث لا تكون قادرة بحال على أن
تخلق لنفسها حضارة أو تدوم على حضارة . ذلك لان اخلاف
الموالدين يحلل خلق الفريدين ويفكك آدابهم فاذا ورث المولدون
من البيض والزوج مدنية راقية أضاعوها سريعاً كما وقع لاهل
(سان دومينج) وأما بين الامم الراقية فالنوالد حامل قوى من
عوامل الارتقاء متى تقاربت بعضها من بعض في الجنس كالانكليز
والالمان أميركا أما اذا كان الفرق كبيراً فالنوالد يورث فساد
النسل لا محالة

لذلك نرى جميع الامم التي يكثر بين أهلها عدد المولدين من
النوعين الأبيض والأسود محكومةً عليها باستقرار الفوضى اللهم
إلا اذا تواتر حكمها يد من حدد . ذلك هو مصير البرازيل من
دون شك فليس فيها من البيض إلا القليل وقد أصاب (اغاسيز)
الشهير بقوله « من زار البرازيل لا يسعه استكثار المدهور الناجم

عن التوالد فيها أكثر من غيرها . فهو يمحو فضائل البيض
وفضائل السود وفضائل الهنود على السواء ويخلف نسلًا ضعيفًا
جسمًا وعقلًا بل لا يقدر الواصفون أن يصفوه »

توالد الأمم بغير مزاجها الجسمي ومزاجها العقلي معًا . وهو
الوسيلة الوحيدة التي يمكن معها تغيير ماهية الخلق الأصلي
في الأمة لأنه لا يفel الوراثة إلا الوراثة فإذا طال الأمد على التوالد
نولد من فعله أمة جديدة ذات صفات جسمانية ونفسية جديدة
وتكون الأخلاق المولدة على هذا النحو متقلبة ضعيفة
في مبادئها ولا تثبت إلا بتعدام فعل الوراثة فيها . فأول أثر لتوالد
أمتين هو إبادة روح كل منهما أعني مجموع المشاعر والأفكار
العامة التي هي سر قوة الشعوب وبدونها لا توجد أمة ولا وطن .
وهذا الدور هو أشد الأدوار في حياة الأمم لأنه دور نشوء
وتأسيس وقد اجنازته الأمم جمعاء فلا تكاد توجد أمة أوربية
غير قائمة على أطلال أمة أخرى وهو مملوء بالانقسامات الداخلية
والعمليات المختلفة ولا ينفضى حتى تستقر الأخلاق النفسية الجديدة
ومما يتيين أن التوالد عامل أصلي في تكوين الأمم
الجديدة ومؤثر قوى في تحليل الأمم القديمة . لذلك أصابت الأمم
التي بلغت درجة عالية من الحضارة في انعادها عن الاختلاط
بالأجانب ولولا التمسك بحبال العصبية لما أمكن للآريين على

قلة عددهم لما أغاروا على الهند منذ ثلاثة آلاف عام أن يستبقوا
شعبهم ولا يتعلمهم تلك الامم السوداء التي كانت تحيط بهم من كل
جانب في بطونها ولما قامت للحضارة قاعة في شبه جزيرة الهند
العظمى وتوالدوا بينهم وبين الهنود . ولو أن الانكيز تساهلوا
في العصر الحاضر لفرت دولة الهند الضخمة من أيديهم منذ زمن
بعيد . والحاصل أنه يجوز أن تفقد الامة شيئاً كثيراً من
مشخصاتها وأن تتناهبها عن كبرى تم تسترد قوتها وتهض ثانياً
ولكنها لا تقوم من رقدتها اذا أصاعت روحها

ومتى مالت الحضارة الى الذبول وأصبحت فريسة المغيرين
عليها من طريق الهدو والسلم أو من طريق العنف والقوة في
الامة أخذ أثر التوالد يطهر وجعلت أخلاقها تتحلل وتركب
فتهدم الحضارة أولاً تهدم روح الامة ويخلو السبيل لقيام
حضارة جديدة بعد تحلل الأخلاق النفسية القديمة وقيام أخلاق
جديدة على أطلالها

واذا دخلت الامة الجديدة في دور التكوين بعد اجتيازها
الأدوار المتقدم ذكرها ظهر أثر السبب الثالث الذي جاء ذكره
في أول هذا الفصل . أعني أثر البيئات ضعيف جداً في الأمم
القديمة وقوى جداً في الأمم الجديدة . وعلة ذلك أنه متى خلى
الطريق من الأخلاق النفسية القديمة بتأثير التوالد أصبح من

السبيل على البيئة أن تؤثر تأثيراً محسوساً في تلك الأرض الخالية
وبمرور العصور عليها تتولد أخلاق جديدة ثم تثبت نهائياً .
وإذ ذاك يقال إن أمة جديدة قد تكونت وهكذا تكونت أمتنا
(فرنسا)

وعليه فتأثير البيئة يكون كبيراً أو صغيراً بحسب الأحوال
سواء في ذلك البيئة المكانية والأدبية . وهذا هو سبب اختلاف
آراء الباحثين فيه اختلافًا كلياً وقد قلنا أنه عظيم في الأمة التي
في دور التكوين أما في الأمة العريقة في القدم بتكرار الوراثة
فيكاد يكون معدوماً

أما دليلنا على ضعف أثر البيئة الأدبية فهو عدم تأثير
حضارتنا الغربية في الأمم الشرقية وإن طال زمن الاختلاط
بيننا وبينهم كما هو مشاهد في الصينيين المتوطنين بالولايات
المتحدة . وأما دليلنا على ضعف تأثير البيئة المكانية فهو صعوبة
استيطان البلد الأجنبي . إذ من المشاهد أنه إذا نقل جنس من
الاجناس انساناً كان أو حيواناً أو نباتاً من مسقطه الى بلد مختلفة
عن بلده في ولم يتحول . وبرهانه أن عترة أم قد افتتحت مصر
وكانت مصر مقبرة الجميع . وما استطاع فاتح أن يستمر فيها .
جاءها اليونان والرومان ثم الفرس والعرب ثم الترك وغير هؤلاء
وهؤلاء ولم يترك فيها واحد منهم أثراً من دمه . إنما النموذج الذي

يشاهد فيها هو ذلك الفلاح ذو السحنة الصادقة في الدلالة على أنه سلالة أولئك الذين رثهم مهرة الصناعات المصريين على قبور الفراعنة وفي جدران قصورهم منذ سبعة آلاف من السنين لا يزال معظم الأمم التاريخية بأروبا في دور النكوين فينبغي للباحثين أن يعفوا على هذه الحقيقة ليفقهوا تاريخ هذه الأمم . وليس في الغرب الآن أمة تم تكوينها وثبتت صفاتها إلا الأمة الانكليزية حيث لم يبق من أثر للبروتوني ولا للسكسوني ولا للنورمندی بل عفت آثار الكل وأخلوا المكان لعنصر جديد متسق الاجزاء متناسب الصفات . أما في فرنسا فلا يزال الفرق موجوداً بين (البروفنسي) وبين (الأوفرنى) و (النورمندی) على أنه اذا لم يتم تكوين المثال الفرنسي الوسط الى الآن فان المثال الوسط لبعض الاقاليم قد وجد . لكن من الاسف أن هذه الامثلة الوسطى لا تزال متفاوتة بعضها عن بعض في الافكار والاخلاق ولهذا كان من الصعب الاهتداء الى نظمات تلائم أحوالهم جميعاً . ولولا حصر الساطة حصراً فويماً لما اتحدوا في بعض أحوالهم العقلية . والفوارق في المراجع العقلية بين الفرنسيين وبعضهم وبعض هي علة انقسامهم على كثير من المسائل المتعلقة بالمشاعر والمعتقدات كما أنها علة الانقلابات السياسية التي هي أثر

من آثار ذلك الانقسام وان يزول هذا وذاك إلا بفعل الزمان
واقعد كان هذا أيضاً حال الامم الاخرى الى جريتها الحوادث
الى الاحتكاك بعضها ببعض فكانت الاشتقاقات والاضطرابات
فيها على قدر افراقها في المزاج العقلي . فاذا كان الخلف واسعاً
استحال بقاء المختلفين تحت لواء واحد وعز اخضاعهم جميعاً الى
قانون بدائه وتاريخ جميع الممالك العظيمة في جميع الازمان شاهد
على ذلك . فانها دالت في الغالب بزوال من شيدها . وليس بين
الامم الحاضرة أمة تمكنت من اخضاع أمم مختلفة عنها كل
الاختلاف الا الانكليز والهولنديون في القارة الاسيوية . وهم
انما نجحوا في ذلك بعدم تعرضهم لعادات تلك الامم وأخلاقها
وشرائعها وبتركهم إياهم في الواقع يحكمون أنفسهم بأنفسهم
مكتفين من السيادة بسهم من الضرائب والعمل في التجارة
والقيام على تأييد السكينة وحفظ النظام

وما عدا هذه الاستثناءات النادرة يتعذر قيام الدول الضخمة
التي تضم اليها أمماً مختلانة إلا بالقوة . على أنها تكون أيضاً عرضة
للزوال بوسائل القوة ولا يمكن أن تنشأ أمة ويثبت قدمها إلا
إذا تكونت على مهل بامتزاج العناصر التي قاتت الفروق بينها
وباستمرار توأدها ودوام حياتها تحت سماء واحدة وخضوعها

لتأثير بيئة واحدة وانقيادها لمعتقدات واحدة ونظمات واحدة
إذا اجتمع ذلك لعناصر مختلفة أمكنها بعد مرور عدة قرون أن
تصير أمة واحدة

وكما تقادمت الدنيا في الوجود رادت الأمم ثباتاً ورسوخاً
وقلّ تحوّلها لتأثير الامتزاج شيئاً فشيئاً وكما بلغت الانسانية
عقداً من العمر أثقلت كاهلها عوامل الوراثية وتعدر عليها التحوّل
عن حالتها وعلى ذلك يمكن أن يقال ان دور تكوين الأمم
التاريخية في أوروبا أوشك أن ينقضي

الباب الثاني

ظهور أخلاق الأمم في عناصر مدنها

الفصل الأول

في أن عناصر المدينة في كل أمة هي مظاهر
روح الأمة في الخارج

عناصر كل مدينة هي المظاهر الخارجية لروح أمتها — اختلاف أهمية هذه
العناصر باختلاف الأمم — قد تكون الشأن الأول للفنون أو الآداب أو
المنظمات أو غيرها من العناصر بحسب الأمم — الممثل لذلك في الزمن القديم
بالمصريين والاعرنيين والرومانيين — الممثل بالفنون — مدلول الفنون —
استحالة دلالة أحد عناصر المدينة وحده على درجة رقيها — العناصر التي توفر
على الأمة أسباب نهوقها — قد تكون العناصر منسجمة فلسفياً ولسمكها ذات
قيمة كبيرة من الوجهة الاجتماعية

عناصر كل مدينة من لغة ومنظمات وأفكار ومعتقدات
وفنون وآداب هي التي يجب اعتبارها مظاهر خارجية لروح من

أوحدها إلا أن أهمية هذه العناصر في الدلالة على ذلك محتملة
باحتلاف الشعوب والأزمان

وقدما يحلوا كتاب من الكتب المؤلفة في متكررات الصور
من تقرير أن هذه المتكررات هي ترجمان فكر أممها الأمم
وأما الدليل الصادق على مدنتها

ولاشبهة في أن الأمر كذلك في الغالب إلا أنها قاعدة
ليست عامة بحال وإس رقي الصور في الأمة مقرباً على الدوام
وفي الأمة العقلية من الأمم من تكون فوسها عنوان رقيها ومنها
من تكون نالمة درجة رفيعة في المدنية وإس للصور عندها إلا
شأن صغير

ولو أنا ادهررنا إلى وضع تاريخ لمدينة كل أمة باعتبار أحد
بلك العناصر دون النقية لوحب أن نسد كل تاريخ إلى عصر خاص
فتكون الصور في هذه والنظامات في تلك والحديثة في الأخرى
والبحارة عند الرابعة وهكذا وذلك محث يجب أن يبدأ
تفريده لأنه يبيدنا في بيان سبب تحول عناصر المدنية تحولاً
متفاوتاً ناسفها من أمة إلى أخرى

يشاهد الفرق في عناصر المدنية على الأخص عند
المصريين والرومانيين في الراس القديم بل يشاهد عندها أيضاً
استلاف الرقي في فروع العصر الواحد

فأما المصريون فقد كانت صناعة الأدب عندهم منحلة
وصناعة النقش صعبة وكان من العماره وصنع التماثيل من أعظم
المتكررات ولا يزال أهل هذا العصر يحسن عما شيد المصريون
من المبانى وقد تركوا لنا أيضاً من صناعة التماثيل طرقاً
(كشيخ البلد) و(الكاتب) و(راحوت) و(نهرتارى)
وكثير غيرها مما يصح أن يتجدد مثلاً يسبح على مواله ولم يصل
الأعريق إلى الموق عليهم فيه إلا ردها من الرمن قصيراً

وبذكر بحاب المصريين قوم روما الذين لعوادوراً مهمماً في
التاريخ ولم يعورهم المعلمون والأُمثلة التي يحتدونها فقد كانوا قريبي
عهد بالمصريين والأعريق ومع ذلك لم يتوصلوا إلى إيجاد فنون
خاصة بهم وهم أهل الأُمم إلى عرفها التاريخ ظهوراً في مستوحات
الصون اذ كانوا لا يعنون بها إلا قليلاً ولا يبطرون إليها إلا من
جهة ما فيها من الربح فيعتدونها من السلع إلى تناع في الأسواق
كالعادن والعطريات والتوابل وغيرها مما يطلبونه لدى الأُمم
الأخرى وقد بدوا أوح سؤددهم وليس لهم فنون وطنية حتى
أهم بعد أن استقر ملكهم ووفرت أموالهم وارتقت ميولهم في
الرحرف وتأثرت بذلك مشاعرهم الفية بعض التأثير ما رخوا
يلتمسون من الأعريق أمثلة يصنعون على موالها وصناعاً
يعدون ما يطلبون

واذا أردنا أن نسطر تاريخ من العمارة أو الحضرة عند
الرومانيين وحدنا فصول تاريخ ديدك المين عند
الاعريق

المحطات تلك الامة الرومانية العظيمة في باب المصون ولكها
رفع الى السماء راية ثلاثة من عناصر المدنية الاخرى فأحدثت
نظام المدنية حتى استلمت به قياد العالم بأسره وأحكمت المنظمات
السياسية والفصائية التي لا يزال يتحدثونها حتى الآن وأحدثت في
أدب اتخذناها عنها قروناً طوالاً

بذلك يرى اختلاف من عناصر المدنية في أمتين لا مشاحة
في أهمها بلعتا من الرقي درجة عليا ويتبين لنا وجه الخطأ في
الاقتصار لتقرير حقيقة الحضارة عند الأمم على عنصر واحد
من تلك العناصر كالصون وحدها لا رأينا عند المصريين
هوناً وصلت حد الاعجاز الا النقش ومن أدب في مستو صغير
حداً ورأينا عند الرومانيين هوناً ضئيلة لا شخصية فيها ولكها
عرها لها أدناً رائعا ونظاماً سياسياً وعسكرياً من الطراز الاول
ولنا أن يذكر الاعريق وهم من الأمم الى تفوقت في مروع
شئ من عناصر المدنية كان من الادب راقياً حداً في زمن
(هوميروس) بدليل أن أعاليه لا يزال معتبرة كالساسةيل الذي
تشعت به شدة الحامات الاوردوناوة مدقرون وقد دل

التنقيب عن عمارات الارمان الغارة على أسها كانت تقرب في زمن
ظهور تلك الأعالي من عمارات المتوحشين وأنها عبارة عن حليط
مشوه مقول مما شاد المصريون والاشوريون

وأظهر ما يشاهد الفرق في عو عناصر المدييه في الامم الهندية
فأما العمارات فعلمنا وجدت أمة فاقت الهند فيها وأما الفلسفة فقد
بلغ بعد نظرهم فيها شأواً لم يبلغه عقل الاوروبيين إلاّ مد عهد
قريب جداً وأما صناعة الأدب فلم فيها معاطيع ومناج تعجب
الكتاب وان لم يبلغوا في ذلك الفن مبلغ الاغريق والرومان
وكانوا متأخرين في صناعة التماثيل عن الاغريق عما حل ثم هم
محدون من العلوم والمعلومات التاريخية وملكة التحقيق مفعودة
مهم الى حد لا وجود له عند أمة أخرى فلم تكن علومهم إلا
تحيالات صيانية وما كتبهم في التاريخ إلا قصص سخيفة ليس
فيها تاريخ حادثة واحدة وربما حلت من ذكر وائمة صحيحة ولو
اقتصر الباحث على المطر الى الصور وحدها لما كفى ذلك في بيان
الدرجة الى كانت عليها حضارة هذه الأمة

وهناك أمثلة كثيرة غير ما تقدم للدلالة على مجاهدا
من الأمم من لم يبلغ النهاية في سلم الرقي وكان لها في الصور طابع
خاص لا يرى فيه نسبة ظاهرة بينه وبين صور الأمم التي تقدمته
ذلك شأن العرب في أقل من قرن بعد اعارتهم على الأمم الاغريقية

الرومانية القديمة قلوا صورة العمارات اليربطية بعد أن جروا على
مثالها حتى أصبح من المتعذر معرفة المصدر الذي اتبعوا فيه
منه لولا وجود سلسلة العمارات السابقة

ومن الأثم من ليس لها أدنى مقدرة فنية أو أدبية ولها
مع ذلك حصارة رافية كما وقع للمبنيين الذين لم يعرف لهم تفوق
إلا في التجارة وهم الذين مدوا الدنيا القديمة عما أوجدوا من
الصلاب بين جميع أطرافها أما هم فلم ياتحوا شيئاً جديداً ويحصر
تاريخهم في ذكر ما كانت عليه تحارهم

وهناك أم المحطت لديها جميع عناصر المدينة إلا الصون كأمة
(المعول) فإن الآثار الصالحة التي أقاموها في الهند يكاد لا يكون
عليها شيء من المسحة الهندية وقد امت من الرواء حداً جعل
المدققين في هذا الصون يعصها أحمل ما شاد بد الأدان
ومع ذلك لا يحظر على بال أحد أن يعد (المعول) في مصاف
الأثم الراقية

على أنا شاهد عند أرقى الأثم حصارة أب الصون لم
تلع النهاية في رقيها أيام وهو ملك الحصاره فان أعظم مسان
المصريين واليهود هي أقدم ما روا وقد تفتحت أكام الصون المعروف
باسم (العوطى) بأوروبا في المرون الوسطى حيث كانت أثم

العرب في حالة تقرب من المحمية ولا تزال تلك الآثار عديمة
السطر الى يومنا هذا

لذلك يتعذر الحكم على درحة حضارة الأمة بدرحة رقي
صوبها دون غيرها لأنها كما سبق لي القول ليست إلا أحد عناصر
المدينة ولم يثبت أن هذا العصر هو أرقى العصور كما ان ذلك
غير ثابت أيضاً لصناعة الأدب بل المشاهد عالياً أن المعسوعات
العنية هي أضعف العناصر عند طلائع الأمم المتحضرة كالرومان
في العصور الحالية والأمريكان في هذا الزمان والمشاهد عالياً
أيضاً كما قدما أن الأمم أتت أنفس صوبها وأشهى أدها وعلى
الأخص الأولى منها أيام كانت في شبه البرية بل يحيل لنا
أن دور اردهار الصون والأدب في أمة هو دور اثاق طموحيتها
أو شينتها لا دور تمام عموها وإذا التفتنا الى الدنيا الحديثة التي
يلوح لها فخرها وقد استهوتها المصالح المادية ورأينا شأن الصون
عندها يكون غير محسوس أمكن أن نخرج عن اليوم الذي نزل
فيه الصون الى درحة المظاهر الثانوية الدالة على المدينة ان لم نزل
الى الدرحة السفلى

وهناك أسباب كثيرة عمع من أن يكون رقي الصون
ملارماً على الدوام لرقى غيره من عناصر المدينة فتكون برهاناً
على الحالة الـ وصلت اليها المدينة المذكورة إذ المشاهد أنه مجرد

وصول الصون الى درجة معينة من الارتقاء أعنى متى ظهرت
الطرف تأخذ الصون في الالمحطاط غير تابعة في ذلك حركة نقية
العناصر الأخرى ذلك باموس عام غير خاص بأمة دون أخرى
أثره طاهر في مصر واليونان وفي أمم أوروبا على اختلافها ويستمر
هذا التطور نحو السقوط الى أن تحدث ثورة سياسية أو عارة
أحتية أو إلى أن تعتق الأمة ديباً حديداً وتعرض حادثة أخرى
من الحوادث التي تشكيف الصون نسبها حصل ذلك في القرون
الوسطى فان الحروب الصليبية حدثت الى أوروبا معارف وأفكاراً
حديثة طهر طالعها في الصون حيث انتقلت مسجداثاتها من
الطارار الروماني الى الطرار (الموطي) وبعد ذلك صنع قرون
تحددت بهصة علوم الادب الاعريقية الرومانية وانتقلت الصون
من الطرار (الموطي) الى طرار (الهصة الحديدية) وقس على ذلك
تغير طرار الصون الهندية في الهند بسبب دخول العرب في
تلك الاقطار

ومما تحب ملاحظته أن الصون من حيث دلالاتها بعض
حاحات المدينة وكومها نتيحة بعض المشاعر المخصوصة تتحدد
وتتغير بحكم الضرورة وقد ترول بالمرّة تبعاً لتغير تلك الحاحات
والمشاعر أو رواها ولا يرب على ذلك أن تكون الحصاراة نفسها
في دول وهذا برهان حديد على فقدان التوارى بين الصون وبين

غيرها من عناصر المدينة ألا ترى أن المدينة لم تلغ من الرقي ما بلغت في هذا الزمان وإن الصور ما كانت في زمن من الأزمان أكثر تدلاً وشيوعاً وأبعد مشحناً لأهمها منها الآن وسببه تغير المعتقدات الدينية والخاصات والمشاعر التي كانت تجعل الصور عنواناً على الحضارة أيام كانت هذه محصورة في داخل العصور والصوامع والبيع فصار البيع أمراً ثانوياً وبصاعة رحوف لم يعد من الخائر أن يمشى فيها الوقت الكثير والمال الوفير ولما لم يعد الفن من الحاحيات أصبح حتماً صاعياً وتقليداً على الغالب فلا توحد الآن أمة لها فنون ملية خاصة بها وكل أمة سفل طرار العمارات والحفر ثقلاً متقناً أو غير محكم عن الأتم التي تقدمتها

نعم لا سكر أن تلك الصور المقولة تدل على عادات أو ميول عبد الباقل ولكن من المحقق أنها لا تدل على ما نحن عليه الآن من الأفكار والمشاعر إنى أنظر إلى مصوغات أهل الفن عندما في الأرماني الوسعلى على سداحتها فأحد أهمهم كانوا يرسمون القديسين أو المسيح أو الحمة أو النار مما كان له الشأن الأول في ذلك الزمان واليه تنبه أعراض الحياة ثم انظر إلى المصوريين في هذه الأيام وهم ليسوا من أهل ذلك الاعتناديكسون حدران الماني تصور قدعة وشارات ترجع إلى زمن طمولية

البشر يحاولون بذلك التذكير بعصر مبدئ فاشعر بآههم يحدثون
صور صناعية أو صورية لا يرجع الى حقيقة ولا فائدة منها لاهل
هذا العصر ولا يعبأ بها أهل العصور القادمة

أما الفن الحقيقي هو الذي يدل دلالة صحيحة على رسمه الخاص
حيث يصور الصانع ما يقع تحت حسه أو نظره لأنه يقصر
عمله على تقليد صور ترحم عن أفكار ومعتقدات لم تعد من
أفكارنا ولا معتقداتنا ولا تعتبر الصور صحيحة في وقتنا هذا
إلا اذا مثلت الاشياء التي تحيط بنا ومن العجالة الصحيح الآن
هو الذي يمثل لما الدور ذات الطبقات الحسنة وعيون الالهة وقناطر
المياه والسكك الحديدية هذا الفن مساهمة المصنعة وهو الذي سيطر
على أفكارنا وحضارتنا ويمثل كل التمثيل عصرنا كما كانت الكنيسة
التي من طراز (العوط) وقصر عهد الشرفاء يمثلان رسماً مخصوصاً
وستستوى تلك الدور الشبيهة بقصر التيه وتلك الكنيسة
(العوطية) في نظر مهندس العصر الآتي لانهما ان تكونا عنده
الا صفحتين من الكتب الحجرية التي يتركها كل رمان للذي بعده
كما أنه سيلقى في روايا الالهة ما يقلده صانع هذا الرمان

كل طراز يمثل خيال أهل زمانه ولما كانت الارمان متغيرة وكذا
الشعوب على الدوام من المسلم أن الخيال يتغير بتغيرها وتستوى
الخيالات كلها في نظر الفاسفة لانها ليست الا علامات وقتية

وعليه فالفسون مطهر من مظاهر الأمة التي أوجت بها
لا فرق بينها وبين غيرها من عناصر المدينة ولكنها لا ترى
فيها الميران العدل لأفكار جميع الأمم على السواء
كان هذا التقرير لازماً في موضوعنا لأن أهمية أحد عناصر
الخصارة عند الأمة هي مقياس قدرة تلك الأمم على تعبير ذلك
العصر إذا نقلته إليها من أمة أخرى فإذا كانت دافع طويل في
الفسون كان لابد لسكان من نقلته إليها من الانطباع بطابعها الخاص
واسكنها لا تؤثر إلا يسيراً في العناصر التي لا تمثل ما سكنها فلما
نقل الرومان طراز عمارات الأعريق لم يحدثوا تعبيراً كبيراً لأن
روح الأمة الرومانية ما كانت لتظهر في الفسوف بل كان اهتمامهم
الأكثر غيرها من عناصر المدينة

ومع ذلك فإنه بعد قرون قليلة يتأثر الفن بعامل البيئة حتى
يدل بالفهر عنه على روح الأمة ولو كانت كالأمة الرومانية ليس لها
من خاص وكانت محتاجة فيه إلى جلب مادتها وصناعتها من أمة
أخرى كذلك يرى معابد روما القديمة وقصورها وأقواس نصرها
وبعضها الباردة مصنوعة بيد الأعريق أو تلامذة هؤلاء ولكن
مسحة هذه الآثار والأعراض التي أقيمت من أحلبها وروحها
وحتى مساحتها لا تذكر الباطر إليها بحال آتينا اللطيف بل هي
تمثل القوة والسيطرة والمعة الحربية التي كانت تقم روما وتقدمها

ومن هنا يتبين أنه مهما كانت المادة التي استعملتها الامة حارحة
في الاصل عن شخصيتها لابد من أن تترك فيها أثراً دائماً لها
يرشدنا إلى شيء من مراحمها العقلي وفكرها البصالي
وعلة ذلك أن للصانع الحقيقي سواء كان معمارياً أو أدبياً
أو شاعراً ملكة سحرية يمثل بها في أعماله روح زمانه وأتمته
والصانع شديد والاصعالات مشاعرهم الهامية يتعقلون بالصور
ولا يبحثون إلا قليلاً فهم بذلك في بعض الارصة مراة الجمعيات
التي يعيشون فيها ومحدثاتهم أصدق شاهد يمكن الاستشهاد
به في مدينة أمتهم والخطأ بعيد عليهم لاسمهم يحدثون عما شاهدوا
كالسعاء وهم شديد والتأثيرات المحيط بهم من المحسوسات فلا يصلون
في التعبير عن أفكار تلك المدينة ومشاعرهم وحاجاتهم وانحاشها
أما الحرية فلا يعرفونها وهذا هو السر في قدرتهم سبحانه
عقيدتهم في دائرة من التقاليد والأفكار والمعتقدات التي تكون
روح الامة ومشاعرهم الموروثة وكذا الأفكار والالهامات وكل
ذلك شديد التأثير فيهم لانه هو الحاكم على مباح الافعال اللانسيهية
حيث تحتصر المحدثات التي يوحدها ولو أنما فقدنا هذه المصنوعات
ولم يكن لدينا ما نعرف به العصور الماضية إلا القصص المستهضة
والتلميقات المخرعة في الكتب التاريخية لاسمهم علينا ماضي الامم
كما عانت عا حقيقة (اطلا علىيد) التي عمرتها الامواح كما ورد

خبرها عن أولادها

والخلاصة أن مزية الفن الصحيح هي التعبير الصحيح عن حاجات الرمي الذي ولد فيه وأفصح الالسن على احتلافها لسان بحدثات المصون وأخصها الممارات فهي أصدق أنباء من الكتب وأقل تصعبا من الديانات واللغات لأنها تبت الحاجات والمشاعر مما والمعاري هو مشيد يات الانسان ويبت أربابه وفي المعاد وفي قلب العائلات احترمت الاسباب الاولى التي كوت تاريخ البشر يستنتج من كل ما تقدم أن جميع عناصر الحضارة وهي مطهر روح الامة التي أحدثتها وأن بعض هذه العناصر مما يتغير بتغير الامم وفي الامة الواحدة وعلى حسب الارمان المحتاجة أصدق في الدلالة على تلك الروح من البعض الآخر

ولما كانت هذه العناصر متغيرة بحسب الامم والارمان من الواضح أنه لا يمكن اتحاد واحد منها كمفاهيم عام الحضارة الجميع كما أنه يستحيل أيضاً أن رتب هذه العناصر بعضها فوق بعض لأن هذا الترتيب عرصة للتعبير قرنا بعد قرن تبعاً لتغير أهمية العناصر نفسها بحسب الارمان كما تقدم

وإذا حكمنا على عناصر المديية من جهة المائدة وحدها قلنا أن أهمها الى تمكنها الامة من استخدام من عداها أعى البطامات العسكرية وحيداً يجب أن يصع الا عريق أهل المصون والفلسفة

والادب دون إحلاط الرومانيين وحكام المصريين وعلماءهم دون
العرس القريسيين من الوحشية والهمسديين دون المعول الذين
يشبهون العرس

والتاريخ لا يشتغل بهذه التقاسيم الدقيقة وأعظم شيء للمقام
الاول عنده هو التصوق الحربي ولكن قلما يكون ذلك مقترناً
بالتصوق في عناصر المدينة الأخرى وعلى كل حال فان الاول لا يبقى
على الثاني طويلاً لأن الافصلية الحربية لا تبدأ مع الاسف
في الامحطاط لدى أمة إلا ويكون محكوماً على هذه الأمة
بالسقوط وما رالت الدول الراقية الا أيام بلوعها دروة المجد
وأوح الحصار فأحلت المكان الى البرابرة الذين هم أدنى منها
عراجل من حيث العقل الا أنهم كانوا على شيء من قوة الخلق
والمناعة الحربية وهما صفتان تعدمان دائماً بكثرة الترفه في الحصار
وعليه لا بد لنا من التسليم والخرق في قلوبنا بأن العناصر المحطة
في نظر الحكماء هي أهم العناصر من الجهة الاجتماعية وإذا كانت
بواميس العصر الآتي هي التي عرفناها عن العصر الحالي قلنا أن أشد
الاحوال خطراً على الأمة وصولها إلى أعلى درجات الرقي في العقل
والتهذيب فالأمم تموت متى صعبت صفات خلقها التي هي نسيج
روحها وصعب هذه الصفات يكون على قدر خط الأمة من
الحصار والدكا.

الفصل الثاني

كيف تعبر البطامات والديانات واللغات

انس في اسطاعة الأمم راقية وديان غير خاة عناصر مديتها - معارضة ذلك بالاعم التي عبرت دياتها ولعتها وقوسها - مثال اليابان - في ان هذا التعبير صوري - العير الكلى في المودية ومذهب الراهمة والاسلام والبصراية بحسب الشعوب التي دامت بها - التعبير الذي يحدث في البطامات واللغات بحسب الأمم التي بدخل عليها - في أن الالفاظ المقابلة في اللغات المختلفة يعرض معان ومساخر متفاوئة - اسبحاله رحمة بعض اللغات الى بعض من احل ذلك - السبب في ان مدنية بعض الأمم يظهر في كتب التاريخ متأثرة تعبير كبير - حد تأثير الحصارات بعضها في بعض

يبدأ في غير هذا المكان كيف ان الأمم الراقية لا تستطيع أن تحصر الأمم التي هي أدنى الى حصارها وأثبتنا أن أكبر العوامل التي تستخدمها أوروبا في ذلك العرص من تربية و بطامات ومعقدات غير كافية بالمررة لاحداث هذا الانقلاب وحاولنا ايضاح ان جميع عناصر المدنية صادرة عن مراح عقلي خاص يتكون بالوراثة مدى الرمن الطويل وأن من المستحيل تعبرها الا تعبر ذلك المراح وأن هذا من صنع العصور لا من عمل الفانيين وانه

لأنه من قطع مراحل متتالية حتى تنتقل الأمة من درجة
الانحطاط الى درجات الرقي كما كان ذلك حال الأمم المتدبرة التي
حطمت الحصار الأعريقية الرومانية ومن يحاول أن يتخطى
بالأمة تلك المراحل من باب التربية فانما يعمل على تحريب آدابها
وتشويش قواها العاقلة والسقوط بها الى مستوا أخط من الذي
كانت بلغت من داتها قبل ذلك

والاستدلال الذي استعملناه في جانب الأمم المنحلة يصدق
أيضاً في جانب الأمم الراقية فإذا صحت النظريات التي شرحناها
في هذا الكتاب صح أن الأمم الراقية لا تستطيع أن تعير
حصارها دفعة واحدة بل يلزمها أيضاً أن تنتقل في ذلك مرحلة
بعد أخرى وأن تقطع أدوار التحول دوراً دوراً وقد يظهر أن
أما راقية تركت ديناً بدى وبدأت نظاماً واختارت لغة دون
أمة وهو نأ جديدة غير ما كن لآئها من ذلك ولكنها في الواقع
لم تصل الى هذا الانقلاب الا بعد أن تكون حورت ما اتحدته
تحويلاً كلياً على مذهب وصقلته حتى جعلته موافقاً لمراحها العقلية

والظاهر أن التاريخ يباقر هذه النظرية في كل صفحة من
صفحاته فكم يرى فيه أمماً غيرت عناصر مدينتها واتحدت لها ديناً
ونظامات ولغة غير التي كانت لها منها من تركت دين آئها الأولين
واعتمدت المسيحية أو البودية أو الاسلام ومنها من حورت لغتها

تحويلاً كلياً ومنها من قبلت بطاماتها وعيوبها رأساً على عقب
وبلوح أنه يكفي قيام بطل من الماتحين أو المرسلين أو أن يأخذ
الأمة شيء من الهوس ليحدث مثل ما تقدم من الانقلاب

غير أن التاريخ بروايته هذه الانقلابات لم يخرج عن القيام
بمعص وطائفة أعى حاق الخطأ وتأيدته اسكن ادادقها الطرقي
هذه التعبيرات المدعاة رأياً أن الذى تعبر في الواقع اعما هي أسماء
الأشياء أما المسميات المحتثة تحت الألفاظ فحية تررق وهي لا تعبر
الاسطىء عظيم

وحتى بين ذلك وبوصح أيضاً أن التعبير يحتمل رويداً رويداً
من وراء هذه التسميات يدعى أن يستقرىء عناصر كل حضارة
بدايتها في أمم مختلفة أعى اسامحدد وضع تاريخها وقد حاوت
هذا العمل الشاق في أحرار عدة فلا يسمى ان أعوداليه ها ولذلك
أحترىء عن جميع العناصر بواحد منها وهو الصور

سأفرد لبيان التعبيرات التي تطراً على الصور فصلاً خاصاً
وأريد قبل ذلك أن آتى ها على طرف من التعبيرات التي يلحق
بقية العناصر لأبين ان الطريقة التي تصدق على أحدها تصدق
أيضاً على البقية وأنه كما أن صور كل أمة تناسب مراحها العقلي
فالمسمة أيضاً موحودة بين ذلك المراح وبين اللغة والبطامات

والمعتقدات وهكذا وانه ساء على ذلك يتعذر تعيرها دفعة واحدة
وانتقالها من أمة الى أخرى (١)

ولقد يذهب الطن الى أن هذه النظرية مناقضة لما يشاهد
في الديانات لكن الواقع أن تاريخ المعتقدات هو الذي يجهد فيه
الأ مثلة القاطعة على صحة نظريتنا والحجة الدامعة على أنه يستحيل
على الأمة أن تعير عناصر مديتها حملة كما يستحيل كذلك على
الإنسان أن يبدل من قامته أولوه

ليس من يسكر أن الديانات الكبرى كالبرهمية والبوذية
والنصرانية والاسلام دخلت دفعة واحدة في شعوب محملتها
فبدلتها بديها الأ صلي حتى حيل أمها استبدلتها فجأة عما وجدت
عليه آناها وبالتأمل في ذلك يتبين أن الذي استبدلته الأمم على

(١) لن أدكر ههنا مثال اليابان فقد كسب عنه قبل الآن ولرعا عادت اليه
في وقت آخر ادسعد ان نعم بعض الصحائف مسيحيين القول على مسألة طاش
حكم عظماء السياسيين ومهاوسهم في خطأهم مع الاسف نعم فصار المطر من
الغلاسة لان همود الاسعارات الحرة ولو على هنج متوحسين لا يزال عند
نعم الافهام دللا على مقدار مدسة العال مع انه من السهل تدرب جماعة من
الروح على النظام الحر في الاوروى وعلمهم كم يستخدمون المدافع والمكاحل
ولكن ذلك لا يعير من اخطا طهم العقلي ولا ينفع ذلك من المستلزمات وطلاء
المدسة الاوروييه الذي بعشى اليابان في هذا العصر لا مبرع له من مراحها العقلي
بحال ولكنه لناس حقير مسعار سمره الثورات عما قرب

الا حص انما هو اسم ديسها للقديم لا الدين نفسه والدين الحديد هو
الدى تير حتى يتفق مع المعتقد القديم فلم يكن الحديدى الحقيقة
الا امتداد ذلك القدم

بل أن البعير الذى لحق بالأديان الى اتملت من أمة الى
أخرى وصل الى درجة لم يبق معها من الدين المعتق حديثاً الا
اسمه وصورته واوضح مثال بحده فى الودية فاتها مسدانقلت
الى الصين صاعت معالمها حتى طسها العساء فى أول الأمر ديساً
مستقلاً ولشوارمناً طويلاً حتى اهدوا الى أمها الودية حورتها
الأمة التى اعتنقها وليست الودية الصينية هى الودية الهندية بذا
وهذه تحالف كل المحالفة ودية (يبال) وهذه أيضاً تبعد عن
ودية سيلان (سرديب) وهى فى الهد مذهب من البرهمية الى
سقتها ولا تختلف عنها فى حقيقتها الا يسيراً وهى فى الصين أحد
المذاهب الى كانت سائدة فى تلك البلاد وبين الاثنيين رابطة قوية
وحال البرهمية حال الودية سواء لسواء فأهل الهد قبائل
شئى وكان لامدوحة من اختلاف شيعهم فى المعتقدات وان اتحد
الدين عند الجميع جميع الدين يديون بالبرهمية لعتقدون أن أم
آلهتهم (فيشو) و (سيقا) وأن الكتاب المقدس هو (فيدا)
غير أن هدين الالهين لم يتركها الا اسمها كما أنه لم يبق من الكتاب
المقدس الا رسمه وفام محاب الكل مذاهب لا تحصى عددها

تشعبت فيها المعتمدات تشعب الصائل والطوائف ههناك مذهب التوحيد وتعدد الآلهة وعبادة الحيوان والجماد ومجموع الكائنات وعباد الأعداد والشياطين وهكذا ولورحماني معرفة الديانة الهدية الى ماهو مسطور في (الثيدا) لما وقعنا على طرف يسير جداً من الآلهة والمعتقدات السائدة في تلك الأقطار المسائية الأطراف فاسم الكتاب المقدس محتار عند جميع البراهمة أما الدين الذي جاء به هذا الكتاب فلم يبق على وجه العموم شيء منه

وما شد الاسلام نفسه عن هذه القاعدة على بساطة مذهب التوحيد الذي جاء به فالمرق كبير منه في القرنين وبلا العرب والهند ألا ترى ان تمكن عميقة تعدد الآلهة عند اليهود سهل عليهم من جعل أكثر الديانات تشدداً في الوحدة شاملة لآلهة كثيرة ههناك خمسون مليوناً من اليهود يرون أن محمدًا والأولياء ليسوا الآلهة أصافهم الى ألف آله مما كانوا يعدون حتى أن الاسلام لم يتمكن من اتحاد المساواة بين جميع المسلمين في الهند مع أن المساواة كانت سمة قونا في انتشاره فلا تزال الطوائف موحدة عندهم كما هي عند احواسهم غير المسلمين وفي بلاد الدكن وعند فائل (درا فان) غير الدين حتى أصبح لا يعرف أنه الاسلام ولا يكاد يعرف منه وبين البرهمية بل أنه لا يعرف عنها الا باسم

محمد وبالجامع ولكمهم ألهوا الرسول وعبدوه
على أنه لا داعي للرحيل إلى الهند لرى ما دخل على الاسلام
من التحوير الكلي بانتقاله من أمة إلى أخرى بل يكفى التأمل
في مسلمي الحرائر هناك شعبان مختلفان العرب والبرابرة
والاثنيان مسلمان وفرق بين اسلام هؤلاء واسلام هؤلاء
البرابرة لا يعتقدون الا بروحة واحدة ولا يعرفون تعددالروحات
الواردة في القرآن واسلامهم مشوه جدا لعبادة الأوثان الى
ألموها منذ المصور الحالية أيام سيادة قرطاجة
كذلك لم تنح الديانات في أوروبا من التحوير بحسب اختلاف
الأمم التي اعتنقها ففيها من حافظوا على لفظ الواعده التي وردت
في الكتب ولكمها سبع دهرت كل أمة في تفسيرها مدها
يخالف مذهب غيرها فبين الأروبيين الذين يتسمون بالنصارى
من هو وثني صرف كسكان بريتانيا السفلى الذين يعبدون الاصنام
وكالأسبابيين الذين يعبدون آلهة من المحافوات وكالتليانيين
الذين يؤمنون تماثيل العذراء في القرى واداء تعقبا في البحث
وحدها مذهب الروتستانت آت من اختلاف أميين متعايرتين في
تفسير كتاب واحد أم الشمال التي مالت الى البحث في معتقدها
بنفسها وتقرر أمور حياتها وأمم الجنوب النافية على حالة من
التأخر في الاستقلال والمطر العاسي وهذا أوضح مثال في بحثنا

تعد بما الشقة اذا أردنا شرح هذه المشاهدات ومع ذلك
فانا نمر مروراً على عصرين آخرين من عاصر المدينة وهما البطامات
واللغات لكيلا نضطر إلى الدخول في تقارير اصطلاحية
تخرج عن دائرة هذا الكتاب

ماضح في جانب الديانات صحيح في جانب البطامات بمعنى أن
هذه أيضاً تتحور اذا انتقلت من أمة إلى أخرى واني لا أطيل
القول وأكتفي بالمات القارى، ايرى نفسه في رمسا هذا كم تعبر
الطعام الواحد بحسب الأثم الى أفرته مع اتحاد اسمه فيها كلها
سواء كان اقراره بالقوة القاهرة أو من طريق الاقناع وسأشرح
ذلك في فصل آخر عند الكلام على أقاليم أمريكا

الطامات ثمرة الخاحات ومما لاشبهة فيه أن ارادة حيل
واحد لا يمكن أن تؤثر فيها فكل أمة ولكل دور من أدوار
تطور هذه الأمة أحوال خاصة في كيوتها ومشاعر وأفكار
وآثار موروثة وهذا كله يستلزم بطامات خاصة ولا يحتمل
غيرها واسم الحكومة لا دخل له في ذلك وما من أمة
استطاعت أن تقرر عندها من البطامات أحسها بحسب ما ظهر
لها ولو أنها أقرتها اتفاقاً وهو ما لا يقع الا نادراً جداً فاتها لا يقدّر
على استنقاؤها واقد كانت الانقلابات والتغيرات البطامية التي تمر
عليها مد قرن كافية لاقناع رجال السياسة عندنا بهذه الحقيقة

كل اى اطن انه لم يعد أحد يرى أن التعبيرات الاجتماعية الهامة
يسهل احداثها بمجرد إصدار الأمر العالية بها اللهم الا دوى
العقول المعوجة من العامة والا نراً من قصار النظر المتعصبين
والحقيقة أنه لا شأن للبطانات ولا فائدة منها الا من جهة كونها
تقرر التحول الذى حصل فى الأخلاق وانقذح فى الأفكار فى
تألمة له لا متقدمة عليه وليست البطانات هى التى تعبر من
أخلاق الناس وأفكارهم وليست هى التى تحمل أمة متديبة أو
قليلة الايمان ولا هى الى تعلم الناس حكم أنفسهم بأنفسهم أو
تجعلهم يظلمون على الدوام من الحكومة أن تصع فى أعناقهم
سلاسل واعلالاً

وكما أملت القول فى البطانات أحملة فى اللغات فأكتفى
بالإشارة إلى أن اللغة تتغير وان كانت مقررة بالكتابة متى انتقلت
من أمة إلى أخرى وهذا هو الذى يجعل فكرة إيجاد لغة
واحدة لجميع الأمم عملاً صدياً نعم أحدثت أمة (العول) بعد
قريب من فتوح الرومان اللغة اللاتينية وأكسها حورثها سريعاً
بحسب حاجاتها وصنعها لصعة معقولها وما رالت بها حتى
أحرجت منها اللغة الفرنسية الحاضرة

يستحيل على شعوب مختلفة أن تستمر على لغة واحدة رماً
طويلاً وقد تضطر الأمة لعامل المتوحات أو ضرورة التعارة

أن تستعمل لغة غير لغتها الأصلية إلا أنه لا يمر على ذلك لصعة
أحيال حتى تتغير اللغة الجديدة بعيراً كبيراً ويكون التعبير أكثر
على قدر الخاف بين الأمة الماقلة وبين الأمة المقول عنها
ومن المحقق أننا نجد على الدوام لغات مختلفة عند الأمم
المختلفة ومن أول الأمثلة على ذلك بلاد الهند أشعوبها شتى ولا
عجب بعد ذلك إذا رأينا العلماء يعدون لها مائتين وأربعين لساناً
والهرق بين بعض هذه اللغات وبين العصر الآخر أكثر من
العرق بين اللغة الأعريقية وبين اللغة الهندوساوية وهناك أيضاً
محو ثلاثمائة عجمة وأهم تلك اللغات أحدثها وهي الهندستانية
لأن عمرها لا يزيد على ثلاثمائة سنة وهي مزيج من اللغتين
الفارسية والعربية اللتين كان يتكلم بهما الفاتحون ومن الهندية التي
كانت أكثر اللغات انتشاراً في الأقاليم التي دخلوها وقد
نسى الغالب والمعلوب في زمن سير إثنين الأولى واتحدت اللغة
الجديدة اسماً عاماً موافقاً للشعب الجديد الذي تولد من استلاط
الفريسيين كما تقدم

والهذه أكتفى بها بيان المسائل الأساسية وأقول إذا
اختلفت الأمم اختلفت معاني الألفاظ وإن كانت متعائلة كونه
لا يرادف فيها ولم يدرت ترجمة إحدى اللغتين إلى الأخرى يهم
ذلك مما هو مشاهد عند الأمة بداتها في اللغة الواحدة والكلمة

يكون لها معنى في زمن وبعد نصح قرون يصح لها معنى آخر
والمعنى القديم هو الذي كان يحول محاطر رجال العصر القديم ثم
تغيرت مدلولات الألفاظ تتغير الأفكار والاحلاق والعادات وبقى
الكلام حاصلاً بواسطة هذه الألفاظ المالية لتعسر استبدالها
ولكنه لم يعد من نسبة بين ما كانت تدل عليه وما صارت تدل
عليه وإذا نظرنا إلى الأُمّ المديعة جداً ممن عرفت عنها حضارة
لا نسبة بينها وبين حصارتنا شعرباً بأن ترجمة لغتهم إلى لغتنا
لا يتح إلا ألفاظاً محدودة عن معانيها الأولى أي أنها لا تنقل إلى
أذهاننا إلا صوراً محالمة كل المحالمة التي كانت ترسمها في أذهان
العوم السابقين وهذه البطرية أظهر ما تكون في بلاد الهند
فإن الألفاظ عندهم لم تتقرر بطريقة ثابتة كما حصل ذلك عندنا
وذلك تنقلب الأُمّ الهندية في أفكارها ولأنه لا قراءة بين معقولها
ومعقولنا ولهم كتب مثل (الفيدا) يستحيل أن نترجمها وقد
حانت مساع كثيرة في هذا السبيل^(١)

إن من الصعب أن تدرك عدد أفكار من يعيش معهم إذا

(١) ذكر أحد المصلحين في العلوم الهندية وهو موسيو (مارت) محاولات
ترجمة (الفيدا) ثم قال ويستخلص من هذه الأبحاث العديدة وكثيراً ما
ساقصت نأفحها امر واحد هو قصورها عن ترجمة هذه الكتب إذا اردنا
بالترجمة مساها الصحيح

افترقوا عما بالعمر والجنس والتربية وأعر من ذلك مالا ادراك
أفكار أمة تقادم عهدها مهما بلغ من العلم بل كلما استردنا علماً
وإذا اقتناعاً بعدم فائدة محاولة الوصول إلى هذه العاية

هذه الأمثلة على إبحارها كافية في بيان أهمية التعبيرات التي
تحدثها الأمم في عاصر المدينة المأخوذة عن غيرها وقد يحيل
أن التعبير عظيم لأن الأسماء تبدل لساعتها ولكه في الحقيقة
شيء يسير ولا بد من نقل الأحيال وتراكم أثر الوراثة حتى
يظهر بوضوح تام أن العصر الميقول يخالف العصر الذي حصل
محلّه وليس لهذه التعبيرات ما أحد في التاريخ لانه لا يهتم فيه الا
بالاشياء الظاهرة وإذا قرأنا فيه أن أمة اعتنقت دينا غير دينها
الأصلي فالذي يهمه من ذلك هو الدين على ما يعرفه منه حين
نطربا فيه لا تلك المعتقدات التي انتحلها تلك الأمة في الواقع
ومن الأمر، وبحسب لمن يريد التصريق بين الالماط والحقائق
الواقعة أن يطل النظر في تلك التعبيرات حتى يقف على كيفية
سيرها ومقدار عموها

وعلى ذلك نقول أن تاريخ المدييات يتألف من هذه الادوار
المتحددة شيئاً فشيئاً وإذا حيل لها أنها فحائية وهامة وذلك لأننا
نقطع النظر عن التقلبات الوسطية بين المبدأ والنهاية ولأننا
لا نطرق الا إلى هذه الأخيرة

وحقيقة الأمر أن قدرة الأمة على تمثيل عناصر المدينا
محدودة جداً مهما بلغت من قوة العقل وعلو الملكات فان حلا
الدهن لا تمثل في يوم ما لم يتكون الا في عدة قرون وما لا يلائم
الا أمرحة تختلف عنها مشاعر وأحلافاً ولا يتأتى تمثيل هذه
الموروثات الا بصم مثابها على مهل وسرى عبدالكلام على تطور
الصون في أدكى أمة وهي أمة الاعريق في الرمن القديم أمها
قطعت أدهاراً حتى حرحت عن نقل مصوغات الأشوريين
والمصريين نقلاً ممسوحاً ووصلت بالتدريج البطيء إلى تحمها التي
لا يزال الناس يعجبون بصنعها

ما كان لجميع الأمم التي تعاقت في التاريخ ماعدا بعض القديمة
حداً كالمصريين والكلدانيين الا أن تمثل في العالب عناصر
المدينة الى سمةتها بعد أن تكون كل واحدة قد أدخلت عليها من
التعبير ما يلائم مراحها العقلي ولولا ذلك لكان تقدم الحضارة
بطيئاً جداً ولوح أن يتأدى كل أمة تاريخها على استقلال ادا لم
تسند من التي سقتها ألا ترى أن الحضارة التي أوحدها
المصريون أو الكلدانيون مدسعة آلاف أو ثمانية آلاف سنة
كانت موارد استقت منها الأمم التالية واحدة بعد أخرى
والصون الاعريقية تولدت من الصون التي نشأت على صفاف نهر
الدجلة أو نهر النيل ومن الطرار الا عريق تولد الطرار الروماني

وتأثر هذا بالموثرات الشرقية فكان منه الطرار اليربطي وطرار
رومايا والعوطى على التعاقب وكلها محتلمات محسب روح الأمم
التي تولدت فيها وإن كانت راجعة الى أصل واحد
وما قلناه في المصون يصدق على بقية عناصر المدييه من نظمات
ولغات ومعتقدات فاللغات الأوروپاوية مشتقة من لغة كانت
مستعملة في العصر الحالي في سهول آسيا وعلم حقوقنا ان علم
حقوق الرومان وهذا مقتبس مما تقدمه والديانة الموسوية مشتقة
مباشرة من ديانة الكلدان ثم احتللت بمعتقدات الآريين
فأصبحت ذلك الدين الذي تدعى به أوروبا منذ ألى سنة على التقريب
كذلك علومنا ما كانت تصل الى شأنها الحاضر لولا ما فعلته
الدهور الحالية فيها فعلماء واصعي علم الملك الحاضر مثل
(كوريك) و (كيلر) و (بيوتس) يتصلون بطليموس صاحب
السكت التي تداولت في تعليم هذا العلم الى القرن الخامس عشر
ويتصل بطليموس من طريق مدرسة الاسكندرية بالمصريين
والكلدان هكذا ينهض من خلال ذلك المقص الفادح الذي يراه في
تاريخ حضارة الأمم تطور بطني في معارفنا يرجع فيه بين العصور
الماضية والأمم الحالية حتى يصل الى بحر الحصادات الأولى
والعلماء يحاولون الآن الرجوع بذلك أيضاً الى الرمان الذي لا تاريخ
للإنسان فيه ومع أن الأصل واحد فما أكثر التعبيرات الى

أدخلها عليه الأم هوصاً وتأحراً طبعاً لمراحها العقلي وباريح
الحصارة ليس الا تاريخ هذه التقلبات
ومما تقدم يتضح أن العناصر الأولية الى تتكون منها مدنية
أمة من الأم خاصة تلك الأمة وأنها خلاصة معقولها وأنها
لا تتحمل الانتقال منها الى غيرها بدون تحوير كبير وأن الذي
يوجب هذا التحوير هي الضرورات اللعوية التي تجعلها بعد تأملها
متساوية عن معان مختلفة ثم الضرورات التاريخية التي تجعل القارىء
لا يرى من الحصارة الا دورها الابتدائي والذي انتهت اليه دور
الدوار التي تجمع بينهما وسدين بأحلى وصوح في الفصل الآتي
المختص بتطورات الفنون كيف يتعاف التحوير على أهم عناصر
المدنية بانتقالها من أمة الى أخرى



الفصل الثالث

كيف تتغير العصور

نطبق النظريات المقدمة على تطور العصور عند الأمم الشرقية — مصر — الأفكار الدينية التي ترجع إليها قوسها — ما صارت إليه هذه العصور ناسقاً لها إلى أمم أخرى محلقة عن المصريين كالاندوس والاعرني والفرس — المحطات التي الاعرني في عصره الأول — نطاء بطوره — اسقال التي الاعرني إلى الفرس ويطوره عندهم وكذا قوس الاثوريين والمصريين — في ان تغير العصور راجع إلى الأئمة ذاتها لا إلى المعتقد الديني — التمثيل لذلك بالعصارات الكلمة التي طرأ على العصور العربية بحسب اختلاف الأمم التي دانت بالاسلام — بط في هذه النظريات في البحث عن اصول قوس الهند ونقلاتها — في ان الهند والاعرني اسميا من مصدر واحد ولكن اختلاف الأئمة جعل لكل منهما فناً لا نسبة بينه وبين الأخرى — تعلقات العصور السككية التي جعلت في الهند باختلاف الشعوب التي تغطي تلك البلاد رغم اتحاد المعتقدات الدينية

أوحرت القول في بيان النسبة بين مراحل الأئمة العملية وبين نظاماتها ومعتقداتها ولعمها والا لزم اشرح ذلك شرحاً وافياً مؤلفات حمة

غير أن الشرح الوافي في العصور أسهل بكثير أما النظامات أو الدين فقولة بالتشكيك وقالة لتأويلات عامصة والباحث فيها

مضطرب الى تماس الوقائع المختلفة اختلاف الارمان والمستورة في
طيات كتب دهب روحها والى الاشتغال بالتدليل والمقد
والتهيب هو لا يصل بعد ذلك الا الى نتائج غير مجمع عليها وأما
المصنوعات الصية وأحصيا الماني الأثرية فابها محدودة جداً كاملاً
وتفسيرها سهل للغاية فكتب الحجارة أحلى الكتب وصوحاً
وهي التي لا كتب أبداً وهذا هو السبب في أنى جماعت لها
شأنا هاماً فيما كتبت عن الحصار الشرقية ولقد كتبت على الدوام
في أشد الحذر من الكتب الأدبية فابها يصل عالماً ولا تفيد
الاقايلا وأما الآثار فابها يصل من يستهدى بها وهي تفيد
دائماً وهي أصدق حصيط على فكر الأمم التي نادت وإبالسكى
من أولئك الاحصا صين الدين عميت عقولهم فلا يبحثون فيها الا
على النقوش فله بحث الآن في كون الصون عدوان مراح الأمة
العقلى وكيف أمها تدير بالانتقال من حصار الى أخرى
وسأفصر بحثى على الصون الشرقية لأن الصون الاوروية
وان كانت لا تخرج عن المطريات داتها كما يماه الا أن بيان
بطورها عند الأمم المحتامة يتصى توسعاً لا محتمله هذا الكتاب
الذيعير

واسمداً صون مصر اعلم كيف تغيرت بافعالها الى ثلاث أمم
على التتابع وهي روح (ايتيوييا) و (الا عريق) و (الفرس)

ليس من بين الحصارات الى أدهرت في المسكوبة كلها
ما يتم التدليل عليه بالمنون كحصارة المصريين فاما طهرت ووصوح
وحلاء جعلها خاصة لضعاف البيل بحيث تستعصى على الاتصال
الى أمة أخرى من دون أن تتغير بغيراً كلياً

خرجت الفنون المصرية وأجصها الأثنية عن حيال خاص
وصعته الأمة نصب أعينها مدى حمسين قرناً كاملاً وقد كانت
مصر تحاول أن تحمل للانسان مقاماً خالداً بدل حياته الفانية
فخالفت من عداها واحتقرت الحياة وحطت ود الوفاة ولم
تهتم بشيء اهتمامها بالموميا الصامتة الشاحصة مدى الدهر من
طلقات مهرها الى ذلك البش الهير وعلبي بعينين موهتين بالمياء
وسط وحه دهى فكأها تروى قبرها المسيح وهي فيه كالمصر
المشيد آمنة من عبث الرمان الى كل ما حست اليه أيام الحياة مما يش
على حدران السراذيب التي لا نهاية لها فالعمارات المصرية هي
أولا وبالذات مباني أحرار ودين العرض منها أن تكون مقاماً
للموميات والآلهة لأحل ذلك بعث السراذيب ورفعت
المسلات ونصبت العمدة وشيدت الاهرام ومن أحل ذلك
استوت تماثيل أنى الهول على عروشها الصحيرية تعلوها سماء
السماحة والحلال وكل شيء في هذه العمارات صمم مكين ذلك
لأنها كانت تشاد لستى ولو أن المصريين كانوا الأمة الوحيدة

الى عرفها من التاريخ العديم اقلنا أن الصون أصدق مصدر
لروح الأمة التي أوجدتها

سم حانت أمم محبلة منها المحطة كالانتويين ومنها
الراقية كالاعريق والعرس واشتلت عن المصريين وحدهم أو
عهم وعن الأشوريين فومهم فما الذي طراً على هدى الصون
بين تلك الأمم ؟ إليك ما كان شأنها في أحط تلك الأمم أعى
في انتوييا

من المعلوم أن الأمم السوداية انتهت فرصة قيام الموصى
وحلول زمن الاخطاط في مصر بعد أن حطت شوطاً طويلاً في
تاريخها أعى أيام العائلة الرابعة والعشرين فاستولى السودايون
على بعض ولاياتها وأقاموا مملكة كانت عاصمتها أولاً مدينة
(سانة) ثم انتقلت إلى مدينة (صروي) ودامت على استقلالها نضع
قرون وقد هزتها حصاره العلوب فأحدثت نقل آبارها وقصورها
وبين أيديها بعض ما أُنشئته بهذا التعليد وإسكه تعليد فطرى
ممسوح في العالب لأن أولئك الروح كانوا رارة محكوماء عليهم
عمصى الخطاطهم العفلى بالقاء في الهمة وهم في الواقع لم يحرخوا
منها رعم حصاره المصريين الى دامت تعمل فهم قروناً عدة
ولا يوجد في التاريخ العديم ولا الحديث ما يدل على أن أمة من

الروح ارتقت في الحضارة إلى درجة ما وما وقعت بحكم الاتفاق
حصارة راقية في يد أمة رحيمة الأسرع إليها الانحلال وسقطت
إلى درجة تعيسة من الانحطاط كذا كان شأن الحضارة عند
الآيتوبيين في الزمن القديم وكذا شأنها لدى أمة (الهائي) في
العصر الحاضر

ثم جاءت أمة أخرى ولكها يبصاء تقيم في عرص آخر وهي
أمة الأعريق وبعثت عن مصر وأشور بمادح فيها الأولى في مبدأ
الأمر وكان نقلها نقلاً ممسوحاً وكانت تلك المادح تأنيها على يد
المبديين الذين كانت لهم طرق المواصلات البحرية الجامعة بين
الشواطئ وعلى يد أمم آسيا الصغرى أصحاب السيادة على الطرق
البرية بين يديهم وبابل

نعم ليس من يسكر أن الأمر انتهى بالبونان فتهوقوا على
أساندهم ولكن أبحاث الأتريين في عصرنا هذا دلت دلالة
واضحة على شدة قصورهم في مجهوداتهم الأولى وأنه صرت لهم
فرون حتى وصلوا إلى أوار تحف الفنون التي حلت دكرهم إلى
الأبد وأن وصولهم إلى هذه العاية اقتضى سعمائة عام حتى
احتملوا هذا العبء وصار لهم من اختصاصوا به دون غيرهم من الأمم
وكان تقدمهم في الزمن الأخير أكبر من تقدمهم في الزمن

السابق كله ذلك لأن طول الأُدوار التي تقطعها الأمم في
حصارتها هي الأولى لا الأخيرة

وأقدم آثار الأعرىق الصبية كمور (ميسين) في مصر
التي عشر قبل المسيح تدل على أنهم كانوا همجاً في تقليد هم مصنوعات
الشرقيين فلم تزل عنها مسحة الشرقية مدى ستة قرون فتثال
(أبولون) في (تيسيا) وفي (اورحوميا) يشبه التماثيل المصرية
شهاً كلياً إلا أنهم من ذلك الحين اتسعت حطاهم وما مضى
قرن حتى ردت إلى الوحود تماثيل (فيدياس) و (البارتيون)
وهي محدثات من حلف من مسحة أصله الشرقي وفاقه بعد أن
نقل عنه دهرأ مديداً

وكذلك كان الشأن في من الممارات وان كان بيان الادوار
الى قطعها أقل سهوله لانا محمل ما كانت عليه المصور الى حاء
ذكرها في قصة (هوميروس) قيل مصر التاسع قبل الميلاد
واكن الذي ذكره لنا عنها من مدران محاسية وقم لامعة الالوان
وحيوانات ذهبية وفصية أقيمت في المداخل كالجراس كل هذا
يدكرنا قصور الاشوريين المعطاة بصفايح الجاس والآحر المموه
تجرها ثيران منحوتة في الاحجار ومع ذلك فاننا نعرف أن مثال
أقدم العمدة (الدورية) الذي يرجع إلى القرن السابع قبل المسيح
موحود في الكرك وبى حس بالديار المصرية وأن أغلب

أحرأء العمد المسماة (يوبية) مأخوذ من عمد كآب الاشوريين
كما نعلم أيضاً أن هذه الاستعارات كانت تصاف إلى بعضها في
أول الأمر ثم مرحت ثم حورت وحرّح منها بعد ذلك نوع من
العمد محالّ حداً لأصله

ثم جاءت أمة مقرها في الطرف الثاني من الدنيا القديمة وهي
الفرس وتمثلت الصور وحورتها كما فعل الاعريق ولكن التطور
لم يبلغ عاية عندها لأن الاحصى فاحأها بالفتح فوفعت حركة
حصارتها ولم يترك لها الرمان لايجاد قلوبها الا قريين اثنين لاسعة
قرون كما ترك للاعريق فلم يظهر على وجه المسكونة الا أمة
واحدة أمكنها أن تدر للوحود فما حاصاها في زمن قصير مل
هذا وهي الأمة العربية

يبدأ تاريخ الفرس مع (قورس) وحلفائه الذين استولوا قفل
المسيح بحمسة قرون على بابل ومصر وهما الوسطان العظميان اللذان
كان محد الحصاره يشرق منهما على الأثم الشرفية وأما الاعريق
وتم الذين كان الرمان يحىء لهم مل ذلك الفتح فما كان لهم ذكر في
ذلك الحين وصارت الدولة الفارسية قطب دائرة المدينة الى ثلاثة
قرون قفل الميلا دأر لها الاسكندر عن عرشها وحول بذلك
مركز المدينة في الدنيا ولم يكن للفرس نوم استيلائهم على مصر
وبابل من خاص ففعلوا عهما المادح واستعاروها الصباع ولما

لم تدم دولتهم أكثر من قرنين لم يسعهم الوقت لتغيير الصون
تعبيراً حوهرياً ولكمهم كانوا بدأوا تتحويرها تحويراً كبيراً أنان
سقوطهم ويستدل على هذه التعبيرات بأطلال (فرسو بوايس)
الباقية حتى الآن هناك شاهد الجمع بين في مصر وأشور وبهما
شيء من فنون الاعريق وشاهد أيضاً آثاراً حديدية أحصها عمود
بلاك المدينة وتاحه دو الرأسين وذلك يدلنا على أن الفرس وهي
أمة راقية كانت تلعب درجة الاعريق ان لم تكن في اتقان الصناعة
في استحلاص طرار حاص بها لو أمهلها الرومان ودليلنا على ذلك
أيضاً آثارهم بعد عشرة قرون فقد قامت عائلة السلوقيين بعد
عائلة الأحميديين الذين أحلهم الاسكندر عن الملك ثم من بعدهم
عائلة (الأرشيديين) وأخيراً عائلة (الساسانيين) الذين قهرهم
العرب في القرن السابع بعد الميلاد في عصرهم صار للفرس من
عمارات حديدية فاداسوا أثراً كان له مسحة خاصة لا يمتار فيها
مفتسه من الفن العربي ومن (الأحميديين) المديم وثى من من
(الأرشيديين) الممول عن الفن الاعريق أبواب شاهمة تلعب
دروة الساءولس مموهة وقاطر (ستيدية) وغير ذلك وهذا
الفن الحديد هو الذي نقلته أمة (الممول) الى الهند بعد ان حورته
بحسب ما اقتضته طبيعتها

وفي الأمثلة المتقدمة بيان درجات التحوير الى تدحليها أمة

على قسوة أمة أخرى وأنها محتلفة باختلاف طبيعة الأمتين
وباختلاف الرمان الذي قطعتة الأولى في ادخال ذلك التحوير
لذلك رأينا أن القسوة سقطت عند أهل ايتيوبيا مع مطالولة
الرمان بسبب ضعف مقدرتهم العقلية وأن الأمة الراقية الى
وحدت من الرمان متسعا كالليونان أمكنها أن تنزع من الص
القديم فمأ حديداً أو أن تتفوق فيه وأن الأمة الى هي أقل رفاً
كالعرس ولم يكن لديها الرمن الكافي أظهرت حدقا في تمثل قسوة
غيرها وبدأت في تحويرها

وعندما غير هذه الأمثلة التي أحداها في أرمان أعلمها بعيد
عنا أمثلة أخرى أقرب عهداً ولها آثار لا يزال يربس وهي ترمز
على عظمة الانقلاب الذي تصطر الأمم لاحداثه في القسوة المقولة
اليها وهذه الأمثلة أكد في الدلالة لأنها مأخوذة عن أعم تدين
بدين واحد وانما تختاب عن بعضها في الحس وهي الامم الاسلامية
لما استولى العرب في القرن السابع من الميلاد على القسم
الأكبر من الدنيا القديمة الاعريقية الرومانية وأقاموا صرح تلك
الدولة العظيمة الى امتدت على عجل من الاندلس الى قلب القارة
الاسيوية مارة بشمال أفريقيا وحدثوا أمامهم من عمارة را
شخصية كاملة وهو الص البرطلي فتساوه بادي بد في مساحدهم
سواء كان ذلك في الاندلس أو في مصر أو الشام كما تشهد به الجامع

العمرى في دمشق وجامع عمرو في القاهرة وغيرها مما لا يزال قائماً حتى الآن ولكن ذلك لم يدم طويلاً وما أسرع ما بدأ العرب في تحويل العمارة بحسب البلدان من قرن إلى آخر وقد شرحت سلسلة هذا التحويل في كتابنا (مدينة العرب) وهو تحويل كلي للعناية بحيث أنه لا يوجد أدنى شبه بين أثر من آثار عصر الفتح الأول كجامع عمرو في مصر سنة ٦٤٢ وبين أثر من آثار آخر عهد الدور العربي العظيم كجامع قايدباي بها أيضاً سنة ١٤٦٨ وقد أوضحنا هناك بالشرح وبالصور أن بين الآثار اختلافات كلية في البلاد التي دانت للإسلام كإسبانيا وأفريقيا وسوريا والعجم والهند حتى أنه يتعدى إطلاق اسم واحد عامها كما يسهل ذلك بالمطر للآثار الموطئة مثلاً لأنها وإن احتلت بعض الاختلاف لا تتحول من المشابهة

ولا يمكن أن تكون هذه الاختلافات الكلية في العمارات بالبلاد الإسلامية آية من اختلاف المعتمدات الدينية فيها واحد ولكنها راجعة إلى اختلاف الشعوب وهذا الاختلاف يؤثر في تطور الصور تأثيراً جوهرياً كما هو شأنه في أحوال الأمم ذاتها وإذا صحت هذه النظرية لربما أن نتطر من بلد تسكنها شعوب محتلمة الأحاس آثاراً متباينة كل التباين رغم اتحاد الدين ووحدة الدولة وهذا هو الواقع كما يشاهد في الهند في الهند

يسهل الوقوف على أمثلة تؤيد ما قررناه في هذا الكتاب ولذلك
أراني أعود إليها حيناً بعد حين
المهد كتاب تاريخي دونه كل الكتب حكمة وبياناً فهو
البلد الوحيد الذي ينتقل فيه رائره من زمن إلى زمن بمجرد
انتقاله من ناحية إلى أخرى وتتحلى أمامه أدوار الحياة التي
قطعها الإنسانية منذ نشأتها إلى أن وصلت إلى دروة المدينة
هناك أشكال التقلبات كلها وللعصر الحجري مشحصات
وللعصر النحاس والكهرواء مميزات والحاصل انه يتعدى على الباحث
أن يشاهد أثر عوامل المدينة وسلسلة تطورهاها بأحسن ما يراه
في البلاد الهندية

كانت لدى مسألة أحاول حلها منذ زمن بعيد هي معرفة
أصل الصون الهندية فلما طبقت الطريبات التي قررتها في هذا
الكتاب اهتديت الى ما كنت أرحو ولما كان الموضوع غير
مطروق الا يسيراً وهو مما تنطق عليه أفكارنا في علم النفس
المتعلق بالشعوب وحب أن تلخص منه ما هم معرفته

لم يظهر للمهد أثر في الصون الا بعد التاريخ زمن طويل
فأقدم آثارها لا يبعد عن تاريخنا أكثر من قريب مثل عمدة
(آسوكا) ومعاند (كارلي) و (ناهوتا) و (سش) وغيرها
وأيام بيت هذه الآثار كانت حصاراً الام القديمة أعى حصاراً

مصر والفرس وأشور أتمت دورتها وظللتها غياهب الاندثار
وقامت مدينة واحدة مقام كل المدييات أعنى مدينة روما وأصبحت
الدنيا لا تعرف الا سيدها هو روما

ولقد أمكن للهد أن تقتبس شيئاً كثيراً من تلك الأثام
القديمة يوم أحدث تطعموا متأخرة بين طلال التاريخ الا أن العرلة
التامة التي ساد على الأدهان أنها كانت تعيش فيها ودانية مساياها
العريية التي لا فراة بينها وبين جميع الآثار المتقدمة عليها جعلتا
الباحثين يعتقدون ربما طويلاً أنها لم تقتبس من ذلك شيئاً
أصعب الى تلك الداية التي لا يحادل فيها أحد ماى الآثار الهمدية
الأولى من اتقان الصنع والتفوق فى الاداع مما لم ترد فيه بعد
ذلك ولا بد أن تكون هذه الآثار المبيعة مسبوقة تتحارب
بعيدة الأمد الا ان الباحثين تعموا ولم يعثروا على ما يصلون منه
الى هذه التحارب السانقة وقد اكتشفت فى العهد الأخير
بعض الأقاليم البائية المعرلة بعايا تماثل يظهر فيها آثار الفن
الاعريقى فذهب العلماء المشتغين بالهد الى أنها أحدثت الفن
عن الاعريق

لكن تطبيق المطربات الى شرحها فى هذا الكتاب
وبدقيق المطار فى الآثار الى لا يزال باقية حتى الآن جالما على

استنتاج نتيجة تخالف مذهب اليه أولئك العلماء فمن يرى أن
الهيد لم تأخذ عن الاعريق فهم وما كان في استطاعتها ذلك
وان احتلظت بعصر الاختلاط عرصاً بحضارتهم لأن الأمتين
كانتا مختلفين اختلافًا كاملاً في الحس والفكر والحدافة النفسية إلى
درجة يستحيل معها أن تتأثر أحدهما بالآخرى والبحث في
الآثار المشورة في الهيد يؤدي إلى أنه لا نسبة بين الصين هيدا
تشاهد آثارها ملأى عما يرم عن فصول الاعريق لا يمكن أن يرى
شئاً من ذلك في الآثار الهيدية بل ان البحث السطحي يرشدنا
إلى أن الأمتين مختلفتان كل الاختلاف بحيث لم يوجد في العالم
أما ان افترضا بل أقول تناهرتا كما تناهرت الهيد والاعريق وترداد
هذه المشاهدة وصوحاً كلما بعدنا في البحث في آثار الهيد وفي
الاطوار النفسية للشعوب إلى أقامتها إذ يتبين أن روح الامة
الهيدية روح خاصة بها ومستقلة عن غيرها استقلالاً يتعدى معه
بأنها تؤثر خارجي بعيد عن معقولها نعم يمكن قهرها من جانب
هذا المؤثر الأجنبي ولكن ما طالت مدته يدق سطحيًا وعرضاً
وكأنما يرى شعوب الهيد على اختلافها وبين بقية الأمم فروق تلعب
في صحامتها تلك المواصل الطبيعية الموحدة بين بلادهم وبين
بلاد المسكونة الأخرى الروح الهيدية مستقلة استقلالاً تاماً
ومهما كان المودع الذي نبحثها الصلابة إلى تمثله فانه يقلب حتماً

فيصير شيئاً هدياً حتى أنك لتجد تلك الروح العربية التي لا تلبث أن تقلب حقيقة الآثار بادية في العمارة حيث يصعب إحصاء الاستعارة ومن الخائر حمل معاري همدى على تقليد أصب أعريقية إلا أنه لا يلبث أن يقلبها فتراها من أول نظرة بصباً همدية بل لا تزال تشاهد هذا التعبير في أيامنا مستمراً مع قوة اليهود الأوروبي فإذا أعطيت إلى صانع همدى عوداً أوروبياً أيما كان ليصنع بطيره رأيته يحافظ على هيئة العامة ولكنه يبالغ في صنع لعصر أحرائه ويريد في رحره وهو يعبره وسدله وفي المدة الثانية أو الثالثة يكون قد حرده من كل مسحة أوروراة وحمله هدياً صرفاً

وأهم صفة عتارها من العمارة الهمدى هي شدة الاكثار من الخريئات والتعقيد في التركيب على عكس الس الاعرهي المتعار بالمساطة من غير نقص وتلك الصفة موحودة أيضاً في صناعة الأدب عند اليهود وهذا هو الذي يجعل الفن متقاربين وبالأمل في الفن الهمدى تنبئ الارتباط الشديد بين الصنوعات الحرفية وبين مراح الأمة العقلية وهي أفصح اساناً لمن عرف كيف يستنقطها ولو فرصنا أن اليهود انقروا كما انقروا الاثوريون لدلتنا بقوت الماررة في عاذهم عماثياهم ومسايمهم الاثوريه بل ما صدمنا واعلمنا منها على الاحص أهم اشدة حياهم ومعدان

ملكه البطام فيهم لم يتأثروا أقل تأثير عما يزع الاعريق فيه من
 حسن الرتيب وشدة الوصوح ولهما أيضاً السبب في أن أثر
 الاعريق فيهم لم يكن الا عريضاً لا يتعدى المحل الذي أحده
 عدهم في مبدأ انتقاله وقد توصلنا بالتأمل في آثارهم الى أن يؤيد
 بالأدلة القاطعة صدق الحدس الذي يتحصل عند من لا يعرف
 الهدم ومعقولها الا معرفة احتمالية ادت من البحث الدقيق أن
 ملوك الهند كانوا على ارتباط مع ملوك الفرس (الارحديين)
 وكان أثر الاعريق نادياً في حصارة الفرس وأن ملوك الهند
 حاولوا مرات عديدة وعلى الاحص في الفريين الاولين الميلاد
 ادخال الصون الاعريقية عدهم ولكم لم يتمكنوا من استنقاذها
 بل مالئت أن اندثرت بروال الملك من يد الدين بعلوها وذلك
 للتناقص بين تلك الصون وبين مراح الامة العقلية فلم تكن ثقله
 الا نقاهر السلطان بل أن التناقص بلغ حداً تعدر معه أن تتأثر
 الصون الاهلية بالصون الاعريقية في أيام أوائل الملوك أنفسهم
 لانا لا نجد في آثارهم الى شيدوها في ذلك العصر ولا في التي بعدها
 كالمعابد الموصوعة تحت الارض أبراً للص الاعريقي وليس ذلك
 الاثر بالشئ الذي تتعسر مشاهدته فري المجموع هدياً صرفاً
 ولكن بعض الحرثيات وعلى الاحص الفرش تدل على أنها سقت
 بيد صانع اعريقي

وكما ظهرت الصور الاعريقية نحأة في بلاد الهند احتضت
مها نحأة لما ييها وبين ميول الأمة من الناس وهذا يدل على
أنها كانت مخلوقة اليها بظاهر الملك ولأن العادة في انذار الصور
عند الأمم ليست كذلك بل الص يتحول ويتحول ويبقى أثر
الحديد مشاهداً في القديم أما الص الاعريقي فانه جلب جملة الى
الهند واندثر مرة واحدة وكان أثره فيها مضموداً كأثر المساني
الأوروبية التي يقيمها الانجليز في تلك البلاد منذ مائتي عام
وعدم تأثير الصور الأوروبية في الهند مع حصولها للحكومة
بأمر السلطان منذ قرن شبيه بعدم تأثير الص الاعريقي فيها قبل
ذلك بألف وثمانمائة عام فليس من يسكر حينئذ أن هناك سافراً
في تصور البسيطات القمية بدليل أن أقاليم الهند كلها قلدت
صور العرب وهم عرباء عنهم كالأوروبيين حتى في الأقاليم التي لم
يصل أثر العرب اليها قد لا تجد معداً لس فيه شيء من رحرف
العرب نعم يوحد الآن ما وحدث في الأرماني البعيد عما أيام حكم
الملك (كاشيكا) راجاوات مهم راجا (جفاليور) حلتهم عطمة
القوة الأوروبية فشادوا لانفسهم مصوراً أوروبية على الطرار
الاعريقي اللابي ولكن هذا الص الرسمي بقي كما كان أيام
(كاشيكا) معزل عن الص الاهلي من دون أن يؤثر فيه
ويستتبع من ذلك أن الص الاعريقي والص الهندي عاشا

معاً حباً لحب في الماضي كما هو الحال في الفن الاوروي والفن
الهندي في الرمن الحاضر ولم يتأثر أحدهما بمحاضته فلا يوحدين
أثر واحد من آثار الهد الحقيقية ويباثر اعريقى شبه في المجموع
أو في الاحراء ولو بعيداً جداً ذلك أمر يستوف المتأمل في
آثار الهد ولا شك في أن شبه التمايز بين روح الامتين كما
قدما لا عدم أهلية اليهود الفطرية في تمثل من أحسن لاهم
تمثلوا وصوروا من الصور ما وافق تلك الروح

دلنا المشاهدات المعمارية الى جميعها أن اليهود اقتدسوا الصور
في مبداء الامر من الفرس الذين ورثوا حضارة الاشوريين
والمصريين لا الذين كانوا في عهد الملوك (الارحديين) ومن
المعلوم أنه لما فرق الاسكندر شمل الملوك (الاحمديين) سنة ٣٣٠
قبل الميلاد كان للفرس حضارة داهرة قل ذلك مما تلى عام لم
أهم ما كانوا اهتموا الى طرار حديد في الصور ولكن مرج فنون
مصر وأشور كان قد أخرج لهم صغاً بديع المثال ويستدل على
ذلك بآثار (رسوپوليس) الباقية الى يومنا هذا حيث تشاهد
المداحل المصرية الصحمة والثيران الاشورية ذات الاحجة
وكذا بعض حريثات من الفن الاعريقى وكل هذا يحمل على القول
أن فنون الحضارة الكبرى في ذلك الزمان اجتمعت في تلك النعمة
الاسوية الصعري

اذن أخذ اليهود الفرس عن العرس ولكن الالهى أحذوه
هى فون الكلدان ومصر لأن الفرس انما استعاروا تلك الفون
ولم يعيروها

والبحث فى آثار اليهود يرشد الى المصدر الذى استقوا
منه فى نادية الامر ولذلك يجب لمن يريد الوقوف على هذه
الاستعارة أن يوجه نظره الى أقدم آثارهم لأن الروح الهندية داتية
الى درجة لا تجعلهم يقعون رمياً طويلاً على طرار لم يكن لهم حتى
يدلوه ويصيروه محالاً للأصل محالة تامة

والسبب فى أن الهند قصرت عن الاحد من فون الاعريق
وأحدثت عن الفرس بسهولة كبيرة كون فون هذه الأخيرة
ملائمة لمراحهم العقلى دون الاولى لأن الآثار الاعريقية بسيطة
الشكل قليلة الحروف فلا تعجب اليهود بخلاف الآثار الفارسية
دات التراكيب الكثيرة والرحرو المبالغ فيه والريسة العائقة
فانها تنهر عقولهم وأحدهم يفسهم حتى أن تأثير الفون الفارسية
فى اليهود لم يكن قاصراً على الرمن السابق على تاريخ المسيح أيام
كان الفرس وارتقى حضارة مصر وأشور بل طهر أيضاً بعد ذلك
بعدة قرون أيام ظهور الاسلام لأن المسلمين طرقوا بلاد الفرس
فلطهورهم فى الهند وكانت حصارهم أبحاث عن حضارة الاولى
شيئاً كثيراً فالمن الذى يعلوه الى الهند هو من فارس على الاحص

وكانت آثار الاشوريين التي دامت في أيام (الاحديين) لا تزال
بادية فيه مثل مداحل المساحد الهائلة ولا سيما الآجر الموهبة التي
كانت تصمغ به وذلك من بقايا حصارة الكلدان والاشوريين
وقد تمثل اليهود هذه الصور لأنها كانت توافق ميولهم وأمالهم
الاعريقى القديم والى الاوروى في هذا العصر فاهما بحافيان
مشاعرم ويباندا ميولهم ومن أحل هذا لم يكن لهما فيهم
من أثر

ثبت حيث أنه لأصله بين الهند والاعريقى من حيث الصور
كما يذهب علماء العمارة الى يومنا هذا وانما ترجع صلتهم الى مصر
وأشور من طريق المرس فالهند ما اقتست من الاعريقى ولكن
الأمتان استقا من يسوع واحد هو ذلك الكبر العام مصدر
المديات كلها وهو الذى جمعه على طول الدهور مصر واشور
استقى منه الاعريقى على يد الميديين وأهل آسيا الصغرى
واستقى منه اليهود على يد أهل فارس فحصارة الاعريقى وحصارة
الهند فرعان من هر واحد الا أن كل فرع حرى محرى خاصاً
فاختلف عن أخيه كما اختلف روح الامتين

ولما كانت الصور مربطة بمراح الأمة العقلى وكان الفن
الواحد يتغير لذلك باختلاف الامم الى تستصعبه لرم أن تختلف
الصور عند اليهود باختلاف شعوبهم رغم الوحدة الدينية والواقع

كذلك كما تدل عليه آثار كل ناحية والتباين شديد جداً بين تلك الصور حتى أنما لم نجد بداً من ترتيبها بحسب الأقاليم أعنى بحسب الشعوب لا بحسب المعتقدات السائدة في أهلها لا مشابة بين آثار الشمال وآثار الجنوب مع كونها شيدت كلها في عصر واحد بين قوم مسيحيين في الدين والتباين موحود حتى في رمن المسلمين أيام كانت الهد فاطمة مصع لحكومة واحدة بلغت النهاية في القوة والسطا نرى الآثار الإسلامية المحصنة محتلمة عن بعضها اختلافاً عظيماً بحسب الأقاليم التي شيدت فيها فالشبه ضعيف جداً بين مساحد (أحمدآباد) و (لاهور) و (إكره) و (بيجاپور) وكلها تمام فيها عمادة واحدة بل أنه أضعف من الشبه بين آثار (مهصة المعارف) والآثار (العوطية) بأوروبا

وليس السابن في الهد فاصراً على الآثار بل هو موحود أيضاً في التماثيل بحسب الأقاليم سواء كان من جهة الشكل أو من جهة الصنع كما يظهر ذلك في نفوس (سائش) الماررة وتماثيلها وفي تماثيل (برهات) وكلها مصنوعة تقريباً في رمن واحد وهو أظهر في مصنوعات ولايى (أوريسا) و (يوندلند) أو في (ميسور) والهد الحيوية وهو ظاهر أيضاً في أقل المصنوعات الفنية وليس من يحفل ذلك وأقل حرة تكفى لتمييز علة من الحشب

الحمور صنع (ميسور) ومثلها من صنع (عررات) أو حاية من
حلي (أوريسا) ومثلها من صنع ساحل (بومباي)
ولا شبهة في أن عمارة الهند دينة قبل كل شيء مثل غيرها
من عمارات الشرق ولكن مهما عظم أثر الدين ولا سماي الشرق
فأثر الامة أكبر

ذلك الروح الذي يحري بالام الى عاياتها يحري بالديانات ايضاً
الى مصائرهما كما يؤثر في المعامات وفي الصور وهو أمامنا في كل
عصر من عناصر المدنية يتناولها بحثنا وهو القوة التي لا قوة فوقها
أثره قوة على قدر ألوف الاحيال الى كونه انه خلاصة أفكار
تلك الاحيال

الباب الثالث

تاريخ الأمم باعتباره مشتقاً من أخلاقها

الفصل الأول

كيف تصدر البطامات عن روح الأمة

تاريخ كل أمة منسوبة إلى الدوام من مراحلها العقلية — أمثلة مختلفة —
في أن بطامات فرنسا السياسية منسوبة من روح الشعب — في أن حقيقةها
تأخذ من غير في الظاهر — في أن جميع أحرارنا السياسية ترمي إلى عرض
واحد صغائرها واسماؤها — في أن مدعاهم هو حصر السلطان وجمعه وفصل
الحركة الدائمة في مصالحة الحكومة — في أن الثورة الفرنسية إنما قامت
بمساعدة خطة الحكومة الملوكية — في أن بطامات الأمم منسوبة إلى الدوام من
حاملها إلى

إنما التاريخ من الجهة العمومية عبارة عن شرح مجموع ما ولده
روح الأمم وهو مشتق من ذلك الروح كما أن أعضاء النفس في
الأسماك متولدة من حياتها في الماء ومن جعل مراحل الأمة العقلية

كان تاريخها في نظره مجموع حوادث مصطربة ناموسها الاتفاق
ومن وقف على ذلك الروح تحلى له أن حياة الأمة ببيعة طبيعي
لأمة خلصها النسي ومهما حصلت مظاهر حياة الأمم تحدأر
روح الشعوب هي الى تسع رد مصيرها

أحلى مظاهر روح الأمة في نظاماتها السياسية ومن السهل
تقرر ذلك بعض الأمثلة

هذه فرنسا وهي إحدى الأمم الى حصلت فيها الانقلابات
الكلية والتي يظهر أن نظامها السياسية تعيرت تعيراً تاماً في
صنع سين والأحزاب السياسية فيها على أشد ما يكون من
الحلف والتباين اذا أمعنا النظر في تلك الأفكار المتناقضة في
مظهرها ودققنا البحث في تلك الأحزاب الى لا مهدأ الحرب
بينها رأياً للجميع حقيقة واحدة تمثل روح الشعب الفرنسي
مثلاً تاماً والمتشددون والمتطرفون والملوكيون والاشتراكيون
والجملة جميع أهل المذاهب المختلفة يحرون تحت أعلام محتامة نحو
عاية واحدة هي فناء المرد في الدولة كلهم مهم تحقيق حصر
السلطان حصراً فيصرياً حتى يكون فياد كل شيء بيد الحكومة
وحتى سظم هي كل شيء وتضم اليها كل شيء ومن حياة الأفراد
في أدق الخريئات وبعينهم مؤنة إعمال الفكر وان قليلاً
واسخدام الهمة وان سيراً وسيان سمي القايص على الرمام ملكا

أو أمراطوراً أو رئيساً أو غير ذلك فعائتها التي ترمى إليها واحدة
وتلك العاية هي ممثلة مشاعر روح الأمة (١). والأمة لا تقبل
عاية أخرى

من جهة تدفعها حركة أعصابها وسهولة ميلانها استقر حولها
ولصورنا في أن حالنا محسن لو أن لنا حكومة غير التي نسير بها إلى
تعمير بطاماتنا في كل حين ومن جهة ثانية نسمع صوت الأموات
نقودنا ويعصى علينا أن لا ندل إلا الألعاط والطواهر حتى لقد
بلغت قوة تأثير روح الشعب اللاسية فيها درجة لا يشعر معها
بطلان الحال الذي نحن فيه

لا مشاهة في ظاهر الحال بين نظامنا القديم ونظامنا
بعد الثورة العظمى والواقع أنها اعماست في طريق الملوكية من
حيث لا شعور فأنت حصر الساطة الذي كانوا يعالجونه من
بضع قرون ولو حرق لويس الثالث عشر ولويس الرابع عشر من
قبرها وشاهدا ما بحري الآن في فرنسا مما صنعت الثورة لوجها
القوم طبعاً إلى ما سيعمل من المسورة للوصول إليه ولكنهما
رياه مطانقاً لتقاليدهما كل المطابقة ولا اعترفاً أهمها لو عهد إلى

(١) قال أحد اصحاب النظر اشاف موسو (دسون واس) بحار روح
الأمة العرساوية بأنه ليس من حابه أن ينجح في بعض الاعمال الضرورية
أو الكمال المتعلقة بالحضارة من دون أن يحبها حكومتها عليه وتساعد عليها

أحد ودرلثهما تنفيذ تلك الحطة لما كان أسعد خطأ في السحاح
ولقالا أن أعد الحكومات الفرنسية عن الثورة هي حكومة
الثورة الفرنسية وتحققاً أنه مد قرن تعاقت الحكومات.
المحتلة الأصاع ولم يحاول واحدة منها تغيير النظام الأول ذلك
لأنه ثمرة التطور المطابق للاموس الطبيعي واستمرار في التقاليد
الملوكية الخاصة لروح الأمة نعم كان لا ماص لهدس الطييين
المحيدين من توحيه بعض النقد ومن ملاحظة أن استدال طائفة
الحكام الشرفاء بطائفة من المستجدين أوحد في الحكومة إدارة
لا شخصية هي أشد خطراً من سابقها لأنها هي المصير الوحيد
الذي لا تناله التقلبات السياسية ولها ماص وسوانق وفيها نصا من
طبيعي أحص صعاتها فقدان السعة واستمرارها يحتمل في النهاية
صاحبة الكلمة العليا دون سواها واعلمها ما كان أشدّ داء الاوم
على هذا لا اعتبارها أن اهتمام الأمم اللابدية بالحرية أقل بكثير
من اهتمامها بالمساواة فهي تحتل جميع طرق الاستعداد على
شرط أن لا تكون صادرة عن فرد واحد وقد لا يحى عليها
ما يرتب من زيادة القوة الاستعدادة على كثرة اللوائخ وتمدد
الصوائط التي تصابق المرد في جميع حركته وأنه إذا تم للحكومة
مهم كل شيء إلى ذاتها وقرعت من التمس في جميع المرافق
وحردت الامم من كل حركة داية تكون الاشتراكية قد

أقلت مراسيها عندما بلا غناء وبلا حاجة إلى ثورة أخرى
واسكنهما كابيريان أيضاً سور الملوكية أو سور النطر الصائم
الذي يعلم أن النتائج تزداد نسبة المعادلة الحسابية باستمرار فعل
المسلمات عيها أن الاشتراكية عادة عن أرقى درجة في سلم
الماءكية وأن الثورة إنما عجلت بالوصول إلى تلك الدرجة العليا
هكذا تظهر في نظمات الأمة تلك الأحوال العرفية أيما
علمها في أول السكتات وهذه المواهب الثابتة إلى محاول تقريرها
والأول، تخلق الاسماء وتحدد الطواهر والثانية هي «تخلق
الملك وهي التي تقدر مصير الأمم

وفي مقابل المثال السابق نجد مثال شعب آخر أعز به الأمة
الانكليزية لأن مراحها النسبي مما من لمراح أمتها وهذا وحده
سدت الشقة بين النظمات في الامتين بعداً كبيراً

لأن مختلف حقيقة الحكومة في الأمة الانكليزية سواء كان
المستوى على عرشها ملكاً كما في بريطانيا أو رئيساً كما في الولايات
المتحدة فهيها يكمنش أن الدولة إلى أقل حد ممكن ويعظم أثر
المرد إلى أقصى غاية ممكنة والافراد هم الناس قومون بالأعمال
العامة الكبرى كالمرافق والترع والسكك الحديدية ودور البرية
وهكذا دون الحكومة وهذا على الصد مما يجري عند الأمم
اللاينية

وأحلى مظاهر تفوق الحركة الدائية يشاهد في أسريكا لان
تلك الحركة صنعت كثيراً في اسكترا منذ خمس وعشرون سنة
حيث تعار عليها الحكومة شيئاً فشيئاً وليس في استطاعة ثورة
ولا قانون نظامي ولا مستند فاهر أن يحصل للأمة ذلك الخلق
الذي تستمد منه نظاماتها ولا أن يتبرعه بها إن كان لها من قبل
وقد قيل مراراً وأعيد تكراراً أن لكل أمة الحكومة التي هي
حقها وما كان الخائر أن يتصور العقل غير هذا

وسدين قريباً أنه ليس في استطاعة الأمة أن تهرب من
نتائج مراحمها العقلي وإذا انفق لها ذلك فليوم أو بعض يوم كما
يحيل أن الرمال حماها الرياح بخالف ناموس الحدب المعاطيسي
ومن الوهم الاعتقاد بأن للحكومات والنظامات أثراً في مصير الأمم
بل أن مصيرها كائن فيها هي لا في الأحوال الخارجية عنها وكل الذي
محور تكليف الحكومة به أن تمثل مشاعر وأفكار الأمة التي
ألفت مقاليدها اليها وكل حكومة هي صورة صحيحة لأمتها بحكم
وجودها وما من حكومة ولا نظام يمكن الحكم بصلاحته
مطلقاً أو بفساده كذلك من المطبوع أن حكومة ملك
(الداهومي) كانت حكومة طيبة جداً بالنسبة للأمة التي صنعت
لسيادته وإن أرقى نظام أوروبي ربما كان غير لائق لتلك البلاد
ذلك ما يحمله لسوء الخط رجال الحكومات الذين يصورون أن

الحكومة لصناعة يمكن تصديرها للامم الاخرى وأن من الخائر
حكم المستعمرات على مقتضى نظمات العاصمة ولا فرق بينهم
في هذا وبين من يحاول اقناع السمك بامكان البقاء في الهواء
بحجة أن التنفس الهوائى ناموس جميع الحيوانات الراقية

ولا اختلاف الامم في المراح العقلية يتعدى نقاؤها كلها تحت
سلطان نظام واحد رسمياً طويلاً وما حصع الانجليز والارلندي
والسلافي والمجري والعربي والفرنساوي لقانون واحد الا تتكبد
المشقات واحتمال ثورات تتحدد من حين الى حين لذلك كان
مقصياً على الدول العظيمة الممتدة السلطان على أمم محتلمة لسرعة
الروال وإذا وحد منها من طالت حياتها كدولة (المعول) ثم
الانكليز في الهدف ذلك أولاً لشدة التمارع بين شعوب تلك
البلاد الناشئة من تعددها فلا تفكر في الاتحاد ضد الاحصى
وثانياً لما للسادة العرباء من البطر الثاقب والبصر السياسى الذى
جعلهم يحترمون عادات الامم الخاصة لحكمهم ويتركوهم يعيشون
في ظل شرائعهم

مادة البحث في نتائج مراح الامم العقلية كبيرة لو استقصيناها
لكان لنا من ذلك كتب عدة ولتبدل الاربح كاه من بدايته

وبرر في ثوب لم يعرفه الناس حتى الآن . وعدى أنه كان يجب
اتخاذ درس هذه المادة قاعدة في السياسة والتربية . فقد يكور
ذلك عاصما من خطأ كثير ومالعا من تعدد الانقلابات لو تيسر للامم
أن تهرب من المقدور لها عقتصى روحها الملى ولم يحفت على
الدوام صوت العقل امام ذلك الصوت القاهر صوت من فى القصور

الفصل الثاني

تطبيق النظريات السابقة على تطور الولايات المتحدة
بأمريكا والجمهوريات الاسيائية الأمريكية

الحلق الاخيرى — كيف يكون الروح الأمريكى — صعوبة التحول
الناشئ عن احوال المعيشة — تحتم هباء العاصر المحطة — الروح والصدسون
— السبب فى رقى الولايات المتحدة والمحطات الجمهوريات الاسيائية الأمريكية
بالرغم من اتحاد نظمات الحميتين — فى أن الموصى التى وقعت فيها الجمهوريات
الاسيائية الأمريكية سبيحة لارمة لا محطاط الشعب

تنبى من الملاحظات الموحدة التى تقدمت أن نظمات الامة
مستعدة من روحها وأنه اذا سهل عليها تعبير صورتها هى لا تقدر
على تعبير حقيقةها الا ان يريد أن يبين بأمثلة حلية مقدار تسلط
هذا الروح على مصير الأمة وأن شأن النظمات فى ذلك شأن
لا يدكر^(١)

(١) رك الاجتماعى الكبر (هربرت سيمس) فى مؤلفاته الكسرة
الكلام على تأثير الحلق فى مصير الامم وحرته نظرياته الحملة نادية الامرالى
حسن التعاؤل فلما رأى فى شجوحه ان يعبر الحلق الدماه عر حكمة مصيرا
ماما وبده رأى كاه نظير ورأيه الاحير طاهر فى حطاب نشر حدثا متعلق

وانى أرحع في هذه الأمثلة الى بلد يعيش فيه حسا لجنب في
أحوال لا تكاد تختلف عن بعضها من حيث البيئة شعبان أوروبيان
متحصران دكيان ولا يختلفان عن بعضهما الا بالخلق وأعى به
البلاد الامريكية هذه البلاد مكوّنة من قارتين بينهما برّح
ومساحة احدهما تقرب من مساحة الاخرى والارض متشابهة
في كليهما وقد فتحت احدهما واستوطنتها أمة البحيرة وأقامت
في الثانية أمة اسابية والامتان تعيشان تحت نظام جمهورى
متشابه لان جمهوريات الحبوب نقلت اليها نظامات الولايات
المتحدة وليس هناك ما تستعين به على ادراك سبب التباين بين
حال الامتين الا الاختلاف الحسى فليطراثر ذلك

وسدأ بذكر محل من صفات الشعب الانكليزى
السكسونى الذى يسكن الولايات المتحدة فهو أشد شعوب
الأرض على التقريب وحدة وتماثلا ومن السهل حداً تعريف
مراحه العقلى في مجموعه

ملاد (سدال) وبقوله محله المحلات والبك شيئاً منه «لند ضعف إيمان كثيراً
في السنين الأخيرة بالطعام الحرة بعد ان كان متيناً وأرى أناسهم يقرأون الى
نظام تقصص علبا فيه يد من حديد ويمثله الاسلنداد الادارى الذى نطمه
الاشراكية هم الاسلنداد العسكرية الذى سيطمه ادا لم يعجل به اليها
الاصطراب الاجتماعى»

أحصى ما يمتار به هذا المراح من حيث الخلق قوة ارادة فلما
كانت لأمة من الأمم اللهم الا الأمة الرومانية في الازمان
الحالية وعريضة لا تمارى وهمة عالية ومقدرة على البس كاملة
واستقلال يلع حد الحروح عن المدينة وبشاط قدبر ومشاعر
دينية شديدة وأدب ثاب ومعرفة واحب تامة

وأما من جهة الدكاء فلا يسهل بيان صفات مميزة خاصة أعى
عناصر ممتارة يمتنع وحوودها في الأمم المتحصرة الأخرى وغاية
ما يمكن ذكره أن هذا الشعب ذو تصور صحيح يسمح لصاحبه
بادراك الجهة العملية في المحسوسات ولا يضل به في أبحاث وهمية
ولعبارة أخرى ذوق شديد الحس بالواقع وضعيف بالنسبة
للنظريات الكلية ثم شيء من صيق العقل يجمع من الالتفات الى
الحاب الضعيف في المعتقدات الدينية ويحمل هذه المعتقدات فوق
المناطرات يضاف الى هذه الصفات العامة أمل قوى في رحل
عرف سبيله في الحياة واعتقد أنه ليس له أن يبدله بأحسن منه
رحل عرف ما عليه لوطه وأهله وره يلع منه الأمل درحة
حقرت في عيه ما هو عريب عنه والواقع أن احتقار الاحصى
وعاداته فاق في الانحليز ما كان عند الرومان من ذلك للبرارة أيام
عظمتهم فهم لا يرفعون ناموس الادب في حاب الاحصى ولا يحد
بين ساسة الانحليز واحداً لا يرى حوار استعمال أمور في حاب

أمة أجنبية لو أتاه في بلاده لا برلت به السخط من كل ناحية .
ولا شبهة في أن ذلك الخلق مسخط في نظر الفلسفة ولكن فائدته
كبيرة في رقي الأمة وتقدمها فهو إحدى قوى المحلثة كما أشار
إليه القائد الإنجليزي (ولسلي) ولقد أصاب القائلون في رفض
الإنجليز بناء بمق تحت بحر الماش يسهل المواصلات على القارة
الأوروبية بأن الإنجليز يهتمون اهتمام الصينيين مع كل تأثير أحسى
من الدخول إلى بلادهم

جميع الصفات المتقدمة موحودة في طبقات الأمة كلها فما
مها إلا وله أثر في عناصر المدينة الإنجليزية يظهر ذلك لكل من
دار بلادهم ولو بصعوبة أيام يرى الحاجة إلى المعيشة الاستقلالية
بادية في مسكن أحقر أخير فهو مسكن صيق بالضرورة ولكنه
مبعرل لا يصايقه قرب الحوار ويراه في محطات السكك الحديدية
حيث يتمشى الناس دائماً ولا يقفون متكأ كثر كقطيع الغنم
المستسلم حلف حاجر محمور بالرفاء كما هم يسهرون على صوم
أولئك القوم من الخطر لا هم لا يحدون من أنفسهم حيلة يتقون
مها دهم العربات يرى عريضة الشعب بادية في عمل الأخير
الشاق كما يراها في عمل التلميذ ترك لشأه فطرق يعلم السير في
الحياة وحده وقد صار يعلم أنه مأمس أحد يهتم بمصيره فيها إلا
بصه يراها في عمل الاستاد يهتم قليلاً بالتعليم ويصرع جهده في

تربية الاخلاق لاعتبارها عنده أكبر عامل في حركة العالم (١)
وإذا ألقى نظرة في الحياة العمومية ووجد أن حركة الافراد الانية
لا قوة الحكومة هي الى تقوم بأغلب الاعمال سواء كان المراد
اصلاح مستشفى القرية أو انشاء مرفأ بحري أو سكة حديدية فإذا
تعمق في النظر تحقق أن هذه الامة رغم عيوبها التي يراها الاحصى
لأجلها أشد الامم حماء هي الامة الوحيدة الحرة بالمعنى الصحيح
لانها هي الوحيدة التي عرفت كيف تحكم نفسها فتبكت من أن
تحدد لحكومتها أصغر دائرة ممكنة وإذا تصفح تاريخها علم
أنها أول أمة خلصت من كل سيطرة سيات في ذلك سلطان
الكنيسة وسلطان الملوك ثم القرن الخامس عشر كان المقيمه
(هورستيكو) يعارض القانون الانجليزى بالقانون الرومانى
الموروث عن الامم اللاتينية وأحد القانوين من عمل الملوك المطلقين
وسرماء تصحية الفرد والثانى من عمل المجموع وعائته حمايته

أنى رلت أمة هدى صماتها تعلو كلمتها بلا مهل وتقيم صروح

(١) قررت الملكة فيكتوريا مكافأة سنوية لدرسة (ولسحتون) وعهدت الى
الدرس (ألير) تحديد شروط يلها فقرر ان تهدى لأرفع اللاميداً حلاقاً
لا لا أكثرهم علماء وكانت هذه المكافأة تقرر من دون شك في امة لاتينية
للتلميد الذى يحيد القاء ما حفظه عن الكتب فتعليمها كاه حتى الراقى منه محصر
في محيط الدروس لللاميد وبأصل فيهم هذه الملكة فيستمررون على القاء ما
حفظوا بنية حياتهم

دول قادرة فان كانت الامة التي برلت فيها صعيقة لا يتمتع بها
كما يسمى مثل أمة (پوروح) ^(١) انقرضت ونادت وان كانت
كثيرة العدد كامة الهنود ولها مقدرة على العمل المصيد أخضعت
الى تابعة قوية وسحرت الى العمل لفائدة موالها الا يسيراً
وأحصى السلاسل التي تطهر فيها آيات رقي الامة الانجليزية المترع
من مراحبها العقلي هي السلاسل الحديدية كالاقطار الامريكية
رحلت تلك الامة الى أقاليم لا ررع فيها ولا يقطعها الا بفر قليل
من المتوحشين وليس للبارحين ما يستعيون به الا ما كان من
أنفسهم وكل الناس يعرفون اليوم ما وصلت اليه فلم يمحض عليها
قرون واحد حتى ارتقت الى مصاف الدول العظمى على وجه
المسكونة وقليل من الامم يستطيع الآن مكابحتها واني أوصي
بكتب موسيو (دوريه) و (بورجيه) عن الولايات المتحدة من
يريد الوقوف على مقدار ما يفتقه سكان الجمهورية العظيمة من
الدشاطر والحركة الدايمة ههناك بلغت مقدرة الافراد عايتها في
حكم أنفسهم بأنفسهم وفي تأليف الشركات لا يعاد أعظم المشروعات
وتخطيط المدائن وتأسيس المدارس وبناء المرافئ ومد
السكك الحديدية وهكذا وههناك قل تداحل الحكومة حتى

(١) هم هنود امرنكا الشمالية ومعنى هذا الاسم (دوو الشرة الحمراء)
سموا كذلك لذلكهم احسانهم بالرب الاحمر ولوهم الحقيقى اسم قائم

يخيل لللسان أن ليس من سلطة عامة بل هو يحار في أن يجد لتلك السلطة عملا في غير أمور الشرطة والسياسة

أصبح من المتعذر على غير متصف تلك الاحلاق أن يرقى في الدلائل الأمريكية وهذا هو السبب في أن البارحين إليها لا يؤثرون في شعبيها ومن لم يكن على تلك الصفات فحكمه الروال لا محالة ولا يقدر على البقاء في ذلك الوسط إلا الانحلال في السكسوني لأنه وسط متشعب بالاستقلال وملؤه العريضة والاقدام الايطالي يموت فيه حوما والارلندي والريحي يعيشان في أحط الخدم

الجمهورية الكبرى هي بلا ريب أرض الحرية ولكنها ليس أرض المساواة ولا أرض الاحياء فما المساواة والاحياء إلا وهما لا تبيان لأجل لهما في ناموس الارتقاء وما اشتد أثر التماسل في بلد شدته في أمريكا فهو فيها لا يعرف للاستثناء نأما ذلك سر نقاء الأمة على ماعتها ونشاطها أما الصعفاء ومتوسطى الحال وفاقدي الأهلية فلا محل لهم في الولايات المتحدة تراهم لصعفاءهم معرضين حتما للروال أفراداً وأئماً على السواء ودليل ذلك عشائر (بوروح) لما أصبحت عديمة البع نادت رمياً بالرصاص أو قتلا بالخوف وعمما قليل يلحق بهم العملة الصيديون الذين يزاحمون أهل

البلاد لعملهم^(١) وقد أصدروا قانوناً باحراجهم مهاجرة ولكنه
لم ينعد لكثرة ما يقتصيه من المال اللازم لاحتلالهم ولا بد من
الاستعاضة عنه عاجلاً بالاعدام المظم وقد بدأ ذلك في حملة
مقاطعات معدية وكذلك أصدروا قوانين منع مهاجرة الفقراء
الى الولايات المتحدة معاً ناك وأما الروح الدين كانوا السب في
الحرب الأهلية الى قامت بين موالى العبيد وبين الذين ما كان
يسمح لهم ملكهم فهم محتلون احتمالاً لأهم لا يراولون الأعمال
ثابوية يعافها الوطنى الأمريكى نعم هم يتساوون معهم فى الحقوق
قانوناً ولكنهم فعلاً يعاملون كالعصوات ذات البع القليل
وسرعان ما يتخلص القوم منهم اذا آسوا منهم شراً والامريكان
محمون على الاكتفاء فى ذلك بالطرق القديمة الى سها قانون
(لش) فأول مانع منهم حرية يتصايق منها الناس يرموهم
بالرصاص أو يشقوهم وقد ذكر الاحصاء وهو ناقص جداً أن
الذين اهدت بهم هذه المشيئة يريدون على الألف مدى السنين
السمع الماوية

(١) هناك قانون نسخ للأمة ان تفعل ما نشاء بأسود تراه محرماً بعد ان
تكون قدم للعصاء وحكم عليه بعبودية هبة او رىء او انه لم يقدم للحاكم لعدم
وجود نص وعادتهم أنهم يسفوه او يصرونه صرناً مبرحاً وقد نطلت هذه
العاده الآن الى الافاليم العيرال أهلة بالسكان فى الولايات العرسة والحكومة العربية

لعم هذه هي الناحية السوداء من صورة تلك البلاد غير أن
شدة بهاها قدرة على احتمال هذا السواد وإذا أردنا أن نعرف
كلمة واحدة ما بين أوروبا والولايات المتحدة من التفاوت قلنا
ان الأولى مثال ما يمكن أن تنتجه الأمة التي قامت فيها الحكومة
مقام الفرد والثانية مثال ما يمكن أن تنتجه همة الأفراد الذين
خلصوا من كل صعب رسمي وليس لهذه الفروق الكلية مدشاً
الا الأخلاق ومن المحقق أن الاشتراكية الأوروبية لا تجد لها
مكاناً تدر به في البلاد الأمريكية لأن الاشتراكية آخر دور
من أدوار استبداد الحكومة فلا تعيش الا في الأمم التي شاحت
بعد أن حصت قروناً طويلة الى نظام أفقدها الاهلية لحكم
نفسها

هذا هو الذي أوحده في أحد فسمي البلاد الأمريكية شعب
تلمت في مراجه العقلي صفات الشات ومصاء العريضة وقوة
الارادة فليطرا الآن حال بلاد متشابهة بين يدي شعب آخر
لامراء في ذكائه ولكيه محرد عن الصفات الى شرحا آثارها
أمريكا الجنوبية أعى بلاد الدنيا من حمة حاصلاتها الطبيعية
وتبلغ مساحتها صعب بمساحة أوروبا وهي أقل سكاناً منها عشر
مرات والارض هالك ان يطلع وهي معروضة على الجميع
والعصر السائد اساني وهي تنقسم الى عدة جمهوريات منها

(الارچنتين) و (البرازيل) و (شيلي) و (بيرو) وغيرها وكلها
اختارت نظام الولايات المتحدة فهي تعيش في حكم قوا من واحدة
ومع ذلك فجميع هذه الجمهوريات بالاستثناء طعمة للعوصى الدموية
والسبب الوحيد هو اختلاف العصر وفقدان الصفات الاساسية
الى رأيناها عند أهل الولايات المتحدة وبالرغم من حصوة أرضها
تنتابها الحسائر من كل نوع ويحجمها الافلاس ويقتلها الاستبداد
من أراد الوقوف على مقدار انحطاط الجمهوريات الاسبانية
الامريكية فعليه بكتاب موسيو (ت شيللا) فانه سفر نفيس تحرد
واضعه عن العاية فيه يبان أن أسباب هذا الانحطاط هو مراح الامة
العقل فقد تحردت عن العزيمة والارادة والملكة الادبية وتحردتها
من هذه المرة الاحيرة وصل الى أحط الدرجات المعروفة أوروبا
ذكر المؤلف المشار اليه مدينة من أهم مدن تلك البلاد وهي
(نويوس أيريس) فقال « انها لا تليق بسكنى من فيه حنة من الواحدان
الحى وأقل درة من الادب » وقال في جمهورية (الارچنتين) وهي
أقلها انحطاطاً من هذه الجهة « من نظر الى هذه الجمهورية في
معاملاتها التجارية علاه الحجل من سوء الدم الطاهر كالشمس
في كل مكان »

ما من بلد يستدل فيه على كون الدطامات بنت الحس مثل
تلك البلاد وعلى أنه من المستحيل نقلها من أمة الى أخرى

والنفس تنوق الى معرفة ماصارت اليه البطامات الحرة للولايات المتحدة بانتقالها الى شعب أحط منها قال موسيو (شيلد) عن الجمهوريات الاسبانية الأمريكية « انها في قصة رؤساء لهم فيها من السلطان المطلق ما القيصر روسيا بل أشد من ذلك لعدم عن المراقبة الأوروبية جميع الموظفين من صائغهم والاهالي ينتحون العص كما يشاؤون ولكن لا عزة بانتحابهم التتة وليس للجمهوريات (الأرجنتين) من الجمهوريات الا اسمها والحقيقة أنها حكومة مطلقة في أيدي أناس اتحدوا السياسة متحرراً »

وبلاد البرازيل هي التي كانت تحت من هذا السقوط والفصل في ذلك للحكومة الملكية التي منعت السلطة من الوقوع في محال الأهواء ولما كانت تلك الحكومة حرة بقدر يريد على ما تقتضيه حالة شعب لاهمة له ولا ارادة سقطت هي الاخرى وهوت معها الأمة الى الموصى وبدد رجال الحكومة أموال الأمة في لصع سبين ثم رادوا الصرائف ستين في كل مائة

وليس سقوط الأمم اللاتينية الى استقرت بالبلاد الأمريكية فاشياً في السياسة وحدها بل طاهر ألساً في عناصر المدينة كلها ولا شبهة في أن نقاء تلك الجمهوريات التعيسة متروكة لشأها ينتهي برحوعها الى الحمجية فقد أصبحت التجارة كلها وكذا الصناعة في يد الاحصى من الانجليز والأمريكان والالمان

وأصبحت (فالاريو) مدينة انجليزية . ولولا الأحاب لما بقى شيء
في (شيلي) ولولا الأحاب لما بقى لتلك البلاد طلاء المدينة الذي
تعتبره أوروبا حتى الآن وفي جمهورية الأرجنتين أربعة ملايين
من البيض أصلهم من الأسبانيين ولا أدرى ان كان يوجد
واحد منهم على رأس صناعة ذات أهمية حقيقية بل كل ذلك في
يد الأحمى

ان في سقوط العصر اللاتى هذا السقوط المريع لمجرد كونه
متروكا لشأه ومقارنته بقرى العصر الانجليزية في بلد تحاوره مشاراً
للحرر والأسي ولكنهما شاهدان ليس أصدق منهما في الاستدلال
على صدق الواميس البصية التي شرحها

الفصل الثالث

في أن تغير روح الامة يعير من تطورها في الحياة

في أن تأثير العاصر الاحدية يعير روح الامة وسدل حصارها — مثال
الرومان — في أن حصار الرومان لم تسقط بالعاره الحرية وانما سقطت باعادة
البربر السلية — في أنه لم يحل محاطر البربر اسقاط الدولة — في أن عارتهم
لم تكتسب شكل الفتح — في أن الرؤساء العربك الأولين اعبروا أنفسهم على
الدوام موطعين في خدمة الدولة الرومانية — في أنهم احرموا على الدوام حطورة
الرومان وما فكروا الا في البقاء عليها — في أن عدول الرؤساء البربر في بلاد
العول (١) عن اعتصار الامبراطور الروماني رئيساً عليهم لم سداً الا في القرن
السابع — في أن تغير الحصار الرومانية يعيراً ناماً لم يكن نتيجة هدم أسسه
وتحرب أساطينه ولكيه ناشيء من أن شعماً حديداً تمثل تلك الحصار القديمة
— عارات العصر الحاصر في الولايات المتحدة — فباتها سبب تلك العارات
من الممارات الداخلية والافتراق الى حكومات مستقلة متساهرة — في عارات
الأحاس برسا وثانجها

تيس من الأمثلة المتقدمة أن حصار الامة لا ترجع الى
نظاماتها بل الى حلفها أعى طبيعة شعها وكذلك رأينا عند
البحث في تكون الامم التاريخية أن انحلالها يحتم عن التماسل
مع الأحمي وأن الامم التي حفظت نفسها من ذلك الانحلال

(١) هو اسم بلاد فرنسا قديماً

وصات وحدتها وقوتها هي التي ابتعدت كل البعد عن الاحتلاط
بالاحاب كأمة (الآرين) في الهدد قديماً وكالامة الانجليزية في
مستعمراتها حديثاً وأن وحد الاحاب وان قلوا كاف لتعبير
روح الامة لانه يعدها القدرة على الدفاع عن خلفها النوعي وعن
آثار تاريخها وما صنع آناؤها الاولون

هذه النتيجة مستحصلة مما قدمنا، وادنا صبح أن عناصر
الحصارة عنوان روح الامة صبح أن تعب هذه الروح مدعاة لتعبير
تلك الحصارة، ولما على ذلك أمثلة كثيرة في الماضي وسيكون
الحال كذلك في المستقبل

أهم مثال صبح في هذا الحب تطور الحصارة الرومانية
وقد ذهب المؤرخون الى أن هذه المشاهدة كانت في الغالب
نتيجة اعارة الضرر لكن اذا دققنا النظر علمنا أن الذي أوجب
سقوط الدولة الرومانية انما هي العارات السامية لا الحرية وأن
الضرر فضلاً عن كونهم لم يعمدوا الى هدم الحصارة الرومانية فاهم
عملوا على احترامها وأقرعوا جهدهم في الانطباع عليها وادامتها
فحاولوا صم لغتهم اليهم والقيام على نظاماتهم وقصورهم وطلوا
يستبقون ماوروا من تلك الحصارة حتى في عهد آخر الملوك
(المير وفحيين) وجميع أعمال الملك شارلمان العظيم مصنوعة
بهذه الصبغة

غير أنا نعلم أن مثل هذا العمل مستحيل لذلك مضى على
الرب قرون عديدة حتى تسمى لهم تكوين شعب متحد العصر
نوفاً بواسطة التماسل ووحدة المعيشة فلما وجد الشعب الجديد
كان له بالضرورة فون جديدة وبطامات كذلك وان شئت فقل
حصارة جديدة نعم لم تخلص هذه الحصارة من تأثير حصارة
الرومان الا أن المهودات التي بدلت لاهياء هذه الحصارة ذهبت
ادراج الرياح فما أفلحت (الهبة العلمية) في اعادة فنونها ولا
الثورة في اقامة ورن نظاماتها

وعلى ذلك ليس من الواقع أن الرب الدين بدأت عارتهم على
الملكة الرومانية منذ القرن الأول للسيلا دواسهى مهم الامر الى
انتلاعها لم يقصدوا اماتة حصارتها بل تعمّدوا استبقاءها وعلى
حرص أنهم لم يقاتلوا الرومانيين وأنهم اقتصرّوا على الاحتلال
مهم شيئاً فشيئاً والرومان يقولون يوماً عن يوم فان محرى التاريخ لم
يكن ليتعير ولكانت النتيجة ماراً بما أعى أن محرد احتلاط الرب
بالرومان كان كافياً فى اماتة الروح الرومانية وان لم يهدم صرح
الدولة وعلى ذلك يصح القول بأن الحصار الرومانية لم يقلب
دفعه واحدة بل استمرت تتحور على مر الايام لالسب غير
وقوعها بين يدي شعوب أحذية وبطرة لسيطة في تاريخ عادات
الرب تؤيد ذلك

ولت الجاث القليل المصريين وأخصها الجاث (فوسيل
دي كولانج) على أن غارات البربر السامية هي التي قوضت أركان
الدولة الرومانية لا الغارات الحربية التي كان الرومان يدفعونها من
غير عناء بواسطة البربر المقيمين في خدمة الدولة . لأنه منذ عهد
الإمبراطورة الأولى تمكنت عادة استخدام البربر في الجيش
الروماني وكانت هذه العادة تتقوى وتموكها اتسعت ثروة
الرومان ومالوا عن الجندية وفي لصع قروا أصبح الجيش ووطائف
الحكومة كلها من الأعراب فكان الجند مؤلفاً من (الورعوط)
و (الرحوبديين) و (الفرنك)

ومحكم تكوين الجيش وإدارة الأقاليم من البربر كان لابد من
استقلال الولايات شيئاً فشيئاً وكذلك كان . غير أن يعود للدولة
كان بالغا جداً لم يحرراً معه البربر على أن يقلبوا لها طهر المحن حتى
الذي كانت له السيادة على نص روما والدليل على ذلك أنه لما
استولى أحد رؤساء البربر على روما سنة ١٤٧٦ وهو (أدواكر)
ملك (الميرول) التابع للدولة الرومانية أسرع فالتمس من
الإمبراطور في القسطنطينية الأذن له بتولي حكم إيطاليا تحت اسم
(باتريس) ومعناه (سيد) ولم يخالف هذه السنة واحد من أولئك
الرؤساء بل كانوا يحكمون الولايات باسم روما وما فكروا

روما في أثبت يتصرفوا في الارض أو يمسوا البظامات تعبيرما
وكان (كلو فيس) يعتز نفسه موطعاً رومانياً ولم كان افتخاره
لما نال من الامبراطور لقب (قنصل) فطل حفاؤه من بعده
ثلاثين عاماً يصدعون بقوانين الامراطرة ويرون من المفروض
عليهم حمل اللباس على احترامها ودام الحال هكذا الى القرن
السابع حيث احتراً الرؤساء من البربر في (العول) على ضرب
السكة وفيها صورهم وكانت لذلك العهد تحمل صورة الامبراطور
ومن ذلك العهد يصح القول بأن رؤساء البربر لم يعودوا يعترفون
برئاسته. وعليه يكون المؤرخون محطتين في بدءهم تاريخ فرنسا
قبل الواقع نمائي عام واصافتهم عشرة ملوك الى عقد ملوكها
كانت عارات البربر على روما بعيدة عن مشاهة الفتح لأن
الاهالي داموا على أرضهم ولعنهم وشرائعهم مما لا يقع في أحوال
الفتح الحقيقي كما حصل في اسكترا لما فتحها البورمانديون ومن
المطبون أن روال الدولة الرومانية حصل تدريجاً بحيث لم يشمر
به المعاصرون فكانت الاقاليم متعودة مدقرون على ولاية يحكموها
باسم الامبراطور ولم يستخلص أولئك الولاية الحكم لانفسهم
الا متدريين على مهل كبير فما بدلوا شيئاً بل استمر الحال
القديم تحت أمرة حديدة طول عهد (المير وبيجين) ^(١)

(١) فال موسيو (فوسيل دي كولايخ) ان حكومة المير وبيجين سعاد

أما التعبير الوحيد الذي صار كائياً هو تكوين شعب تاريخي
حديد وظهور حصارة جديدة كأثر لازم لهذا الشعب طبقاً
للتواميس التي قررناها

هذا ناموس متحدد الأثر على الدوام ويحال أنه أثبتت تواميس
حياة الأمم وكأننا نشاهد معه في هذه الأيام عارات سامية شديدة
مالتى بدلت حصارة الرومان قد يحال من انتشار الحضارة في
هذا الزمان أن البربر انقضوا أو أنهم بعدوا عنا وتوسطوا آسيا
وأفريقيا فلم يعد يحسب لهم حساباً ومن المحقق أننا لن نخشى
عارتهم علينا ولا خوف منهم من جهة المنافسة الاقتصادية التي
قد يحاربونها بها يوماً من الأيام كما أوضحت ذلك في كتاب آخر
ليس كلاماً فيهم بل الكلام في أن هناك بربراً يحسبهم بعيدين
عنا وهم في الواقع أقرب منا الآن من بربر الامبراطورية الرومانية
لأنهم مقيمون بين طهراني الأمم المتحصرة ذلك أن حصارنا
أصبحت متشعبة العناصر مشتتة الأجزاء وان الصروق بين
الأفراد كثرت وتنوعت كما يباه من قبل وأصبح في كل أمة
عدد كبير من العناصر المخططة إلى لا قدرة على احتمال حصارة
راد رقيها عن طاقتهم وهذا التحليل كل يوم في إردباد وهو

تكون صورة الحكومة الامبراطورية الرومانية في بلاد (العول) ولاشيء فيها
من حكومة الشرفاء

وهو يرداد ضخامة شيئاً فشيئاً وعارته ستكون القاصية على الامة
الى تلى به

الآن يركب البربر الجديدون عارات الاعتراب الى الولايات
المتحدة بأمريكا وهم الذين يحشى شرهم على حصاره تلك الامة العظيمة
ولما كانت المهجرة قليلة وكان المهاجرون من الانكليز كان
امتصاصهم سهلاً مقيداً وتلك المهجرة هي التي أقامت عطمة أمريكا
أما اليوم فقد طمع على الولايات المتحدة سبل حارب من العناصر
المسحطة وهي لا ترعب في امتصاصهم ولا تقدر على ذلك إن أرادت
دخلها من العرباء ما يقرب من ستة ملايين بين سنة ١٨٨٠ - ١٨٩٠
كلهم على التقريب من الاحراء الغير الراضين وهم أحساس شتى
وليس في مدينة (شيكاغو) الآن من الامريكان الربع من
سكانها وعددهم (١٠٠٠٠٠٠) نسمة فيها (٤٠٠٠٠٠) الماني
و (٢٢٠٠٠٠) أرلندي و (٥٠٠٠٠) بولوني و (٥٥٠٠٠) تشيك
وغير هؤلاء ولا امتراح بين هؤلاء الاعراب وبين الامريكان
وهم لا يهتمون حتى ناعة وطهم الحديد وإنما هناك حالات تعمل
أعمالاً ربحها يسير لذلك هم غير راضين ولذلك هم أعداء أهل البلاد
وقد كادوا يحرقون المدينة مدة اعتصاب عمال السكك الحديدية
حتى اضطرت الحكومة إلى أن تعمل فيهم مدفع (المتراليور)
بلا رحمة ومهم يجرح دراويش تلك الاشتراكية السمحة التي

تهدم العوالم والتي قد يسهل قيامها في أوروبا بسبب ما ألم بها من
الصعف ولكنها تنافر طبع الأمريكى مسافرة كبرى وسيكون
التنازع الذى تولده هذه المذاهب في الجمهورية العظيمة تنازع
عناصر افرقت في تطورها

والظاهر بالمذاهب أن الدولة لا تكون خليفة الضرر في
الحرب الأهلية التي ستسعر بارها بين أمريكان أمريكان وأمريكان
الاحاب في تلك البلاد وأن تلك المعركة الهائلة ستنتهى بمقرة
هائلة تعيد كرى استئصال (السامر) ^(١) من يد (ماريوس)
ولا تختلف عنها الا في صحافتها وادا تأخرت الحرب واستمرت
المهجرة لا يكون الاستئصال تاماً وربما صارت الولايات
المتحدة الى ما صارت اليه الدولة الرومانية أعى أنها تفرق الى
حكومات مستقلة بعضها عن بعض تنتابها الاشقاكات والحروب
كما هو الحال في أوروبا أوى أمريكان الاسباية

وليست أمريكان وحدها هي المهددة بهذه العارات من الامم
الاوروية ما يتوقع لها مثل ذلك أعى الامة الفرنساوية البلاد
عية وعدد سكانها لا يريد ومن حولها أم صغيرة سكانها في ارياد
مستمر وهمهم اليها أمر محتوم ويساعد على ذلك ارياد مطالب

(١) أمة من البرابرة أعارت على بلاد العول قبل الميلاد عاتى عام فلافها
حاكم اسمه (ماريوس) وحاربها حرباً طحيها بها طحيها

الاحراء المرساويين الذين يلحئون قومهم بذلك إلى قبول الغرائب
في الاعمال الزراعية والصناعية وللبارحين الينا مافع طاهرة فلام
مكلمون بالخدمة في الجندية ولا يبالهم شيء من الصرائب
الشخصية أو ان ما يبالهم من ذلك يسير جداً لا اعتبارهم غير مستقرين
وعملهم أقل عناء وأكثر أحراراً منه في بلادهم وليست ثروتنا
وحدها هي التي تحرهم اليانبل لان البلاد الاخرى تصدر كل
حين قوانين قاصية بمع روحهم اليها

ومما يريد في حطرة اارة الاحاب أن الذين يرلون بغير أمتهم
من أحط الطبقات وما تركوا بلادهم إلا لتعذر المعيشة عليهم فيها
ويحس ثقلهم على الرحب عملاً عمادىء الاسابية التي حلداعليها ولدلك
يرداد عددهم شيئاً شيئاً كانوا أقل من (٤٠٠،٠٠٠) مند أربعين
عاماً فبلغوا الآن (١،٢٠٠،٠٠٠) وصوفهم تكثر في كل يوم ولو
نطربا الى عدد التليانيين من بينهم لقلنا أن مرسيليا مستعمرة
تليانية بل ليس للدولة الايطالية مستعمرة يلع عدد سكانها التليان
عدد من يقيم منهم في تلك المدينة وادالم تمير هذه الحال
وتقف حركة الهجرة يصح سكان فرنسا في زمن قريب ثلثهم
من الألمان وثلثهم من التليانيين فادا يكون من أمر وحدة الامة
بل من وجودها في مثل هذه الاحوال ان أكثر مصائب الحرب

أهون عليها من نتائج ذلك وأحف ضرراً^(١) لقد كان للأمم الغارة
إلهام صادق في تصورهم من الأجنبي لأهم كانوا يعلمون أن قيمة
الأمة بالوطنيين من أهلها لا بعدد سكانها

ومن ذلك يتبين لنا أن أس الأسس في جميع المسائل
التاريخية والاجتماعية مشكلة العاصر ودورها مشكلة سواها

(١) ليس في قدره الأمم مع هذه العارات لأنها مسندة عن مسائل
اقتصادية لاحلة للناس فيها إلا أنه في الامكان اتحاد بعض الوسائل لاعادة نموها
كتقرير الخدمة الاحلالية في الحدية بالولايات الاحدية على كل أحصى له في
البلد سنتان ولا سلع عمره خمساً وعشرين سنة وفرص البدل التقدي على من
راد مسة عن ذلك والعام التحدي العام بآلا اسشاء وور بطا صر سنة ربع الايراد
أو الأحرور على كل أحصى تحس بالحسنة الفرد ساوثة أم لم تحس وكان مقيما في
البلاد مسد أهل من خمسين سنة والنائب الذي يتمكن من التصديق على مثل هذا
القانون يستحق أن يهام له عمال لتحليل د كره

الباب الرابع

كيف تتحول الصفات النفسية للامم

الفصل الأول

أثر المادىء في حياة الامم

في أن المادىء التى تدور عايتها حصارة الأمة قليلة العدد - في أن تولدها
مطلىء وكدار والها - في أنها لا تؤثر في سير الأمة الا بعد أن يصير من
المشاعر - في أنها تكون اد دالك جزءا من الخلق - في أن بطة بطور
المادىء هو السبب في رفاء الحصارة رمأ ما - كيف تستقر المادىء - في
أنه لا تأثر للمقول في ذلك - تأثير الموكيد والنفود - تأثير أهل الاعتقاد
والرسل - تشويه المادىء بانتشارها من الخوج - في أن المبدأ متى استقر
أحدث لساعه تأثيراً في جميع عناصر المدة - في أن الفصل في وحدة السطر
هدد أهل كل زمان وحدة وسط تحملهم مسماهن في تصوراتهم وأعمالهم راجع
الى وحدة المادىء فيهم - تأثير العادة والرأى السائد - في أن وطأة هذا
الأثر لا تحف الا في أوقات المحنة عند ما بعد المادىء القدمة قوتها ولا يستعاض
عنها - في أن رمز الوحدة هو الذى تيسر فيه اليحب في الآراء - في أن
المذاهب لا بدوم الا بشرط عدم البحث فيها - في أن الامم اذا عبرت
مبادئها ومذاهبها اضطرت الى تغيير حصارتها

بعد أن بينا أن الأخلاق النفسية للأمم ذات ثبات مكين
وأن تاريخ الأمم راجع إلى هذه الأخلاق قلنا إن العناصر النفسية
قابلة للتغير على مر الأيام وتعاقب الوراثة كالعناصر الجسمية سواء
سواء ونقول الآن إن هذا التغير أهم الأسباب في تطور المدنية
وأسباب التغيرات النفسية كثيرة منها الحاجة والتنافس
في العيش وتأثير البيئات وتقدم العلوم والصناعة والتربية
والمعتقدات وغير ذلك وقد أشرنا قبل الآن كتاباً شرحنا فيه
شأن كل واحد من هذه المؤثرات فلا محل هنا للأسهاب في هذا
الموضوع ^(١) وإنما نختار البعض من هذه العوامل لبيان وجه
فعلها وهو ما سقررره في هذا الفصل وما يليه

يرشدنا النظر في حصارات الأمم إلى دوست في التاريخ
مدد المدد أن رقها كلها كان وفقاً لمبادئ قليلة العدد ولو أن تاريخ
الأمم اقتصر على تاريخ هذه المبادئ لما بلغ من الطول ما قد بلغ
فإن الحصار التي يتولد عنها مدى قرن بأكملة مدداً واحداً أو
مدداً أساسيان في عالم الفنون أو العلوم أو الآداب أو الفلسفة
تعد من أنهي الحصارات وأرهاها

ولا يظهر للمبادئ تأثير حقيق في روح الأمة إلا إذا احترت

(١) الأسان والجمعية من حسب الأصل والتاريخ جزء (٢) مسح تطور
الجميات البشرية

على مهل ونزلت من أعالي السطر العقلي الى عالم المشاعر المستقر
اللاتنهي حيث تتكون دواعي الحركة الانسانية اد ذلك تصير
المادى حراً من الخلق ويكون لها تأثير في الحياة لان الخلق
يحتاج في تركيبه الى تراكم طبقات من الافكار اللانتهية

اذا احترت المادى على هذا النحو أصبح أثرها شديداً
حداً لاها تغلت حينئذ من تحكم العقل فيها ألا ترى أن داليقين
الدى استولى على قلبه مدأ دى أو غير دى بعيد عن التأثير
بالمعقول مهما كان ذكياً وكل الذى يكون من مقدوره -
والعالب أنه لا يحاول ذلك - هو تلمس الحيل العقلية والقلب
والابدال توصلا الى صم الراى الذى يعارض به الى الراى الذى
تمكن منه

وإذا ثبت أن المادى، لا تؤثر في الحياة الا اذا انتقلت
من عالم الشعور الى عالم اللاشعور تبين السبب فى بطء تغيرها
ووصحت العلة فى أن الذى تنبى عليه الحصاره منها قليل وأنه لا بد
من زمن طويل لتطورها وعليها أن سر بأن هذا هو الواقع
والا لما كان للحصاره أن تحي طويلا كذلك من حسن الخط
قابلية المادى، الحديد للاستقرار اد لو دامت المادى، القديمة
مدى الدهر لاستحال أن ترقى الحصاره أبداً وبطء تطور
المعقولات هو السبب فى أنه يلزم لاستطهار المادى، الجديدة

عدة أجيال كما أنها لا تروى إلا بعد أجيال عدة وأرقى الأمم حضارة
هي التي تيسر لها أن تمسك مبادئها الأساسية على بعد واحد من
التعير والجمود . أما الأمم التي لم يكن لها هذا الحظ فمادت والتاريخ
يدكر بقاياها

وعلى ذلك يتحلى لنا بالسهولة أن كثرة المبادئ وقرب عهد
ظهورها ليس هو الذي يستوقف النظر في تاريخ الأمة بل على
الصدق قلنا المتناهية وبطء تحولها وشدة تأثيرها فالحصارة نبت
بعض المبادئ الأساسية تبقى بقاءها وتعير تعيرها قامت حياة
العصور الوسطى على مبادئ المبدأ الديني ومبدأ حكم الاشراف
والى هذين المبادئ ترجع فصول تلك الارمان وآدابها وبطرها في
الحياة على الاطلاق ثم طرأ على هذين المبادئ بعض التعير من
(الهضة) ومبدأ تحدد حيال العصر الاعريقى الرومانى وتمكن
من عقل أوروبا بدأ التطور في تصور الحياة وفي الصور والفلسفة
وصناعة الادب ثم تداعت قوة السسة السالمة وصارت الحقائق
العقلية تحل محل الحقائق القلبية فتطورت الحضارة تطورا
جديداً والطاهر أن المبادئ الدينية فقدت الآن القسم الاكبر
من سلطانها فوهت فوائدها وأصبحت جميع البطامات الاجتماعية
التي كانت مرتكزة عليها مهددة في وجودها

يجب أن سكر الامثلة للاتيان على تاريخ تكوين الافكار

وتحكها واصححلالها وتعيرها وزوالها ولو أتيح لنا الدحول في
الحزنيات لبيد أن كل عصر من عناصر المدييه كالفلسفه والدين
والفنون والادب وهكذا يرجع الى عدد يسير من المبادئ
الاساسيه الطيئه النمو ولا تشد العلوم ذاتها عن هذه القاعدة
فعلم الطييمه قائم الآن على مبدأ عدم العدم القوه وعلم الطب
قائم على مبدأ أصغر ماحلق وتاريخ هذه المبادئ يدل على أنها
لا تستقر إلا بالصموده رويداً رويداً مع كونه من أبحاث العقول
المستبيرة ومع أن كل شئ يسير على عجل في هذا العصر وأنه
لا تأثير للشهوات ولا للمنافع في الباحثين وأهل النظر يحتاج
للبدا العلمى الاساسى الواحد الى خمسة وعشرين عاماً حتى تتحلى
غوامضه ويأخذ قراره ولم يمض زمن أقل من هذا في تحرير
أوضح المبادئ وأقلها عرصه للحلاف كمبدأ الدورة الدموية

وجميع المبادئ متحدة في كيمية التكوين والظهور لا فرق في
ذلك بين المبدأ العلمى والمبدأ الفلسفى أو العلمى أو الادنى أو غيره
يعتق المبدأ في أول الامر عدد قليل من المشرين به ثم الدين بمطعم
نورهم عما هم عليه من قوة اليقين أو عما لهم من المكاة الرفيعة
ويتشر أثرهم باللقاء أكثر مما يشر بالتصريح لأن عناصر الاقناع
الحقيقية ليست في قوة البيان واعايدى المحاطب لرأى المتكلم
لهود الثانى أول كونه نوحه الخطاب الى ما يشتهى الأول ولكه

لا يؤثر فيه أقل تأثير اذا وحه خطاه للعقل وحده . فلا تتأثر
الجماعات خاصة بالتقاريرات ولكنها تتأثر بالتوكيدات وقوة
التوكيدات لسهولة ليعوذ مقدمها

ومتى يحج المشرون في اقناع من حولهم كان لهم منهم مشرون
آخرون اد دالك يدخل المبدأ الحديدي في باب البحث والمطابقة
وتكون المعارضة فيه عامه في مبدأ الأمر لأنه يصطدم بالضرورة
مع أمور كثيرة ناتجة من قبل فيحتاج ذلك القائمين بالدعوة اليه
لأن المعارضة تريد اقتناعاً تفوقهم على من عداهم وتكبر عريهم
في الدفاع عن مبدأهم لا لمجرد كونه حقاً اد العالب أنهم لا يعرفون
مبلغ ما فيه من الصواب بل لأنهم احتاروه وأعلوه ههناك
يشدد التحارب فيه ومعنى ذلك في باطن الأمر أن الدعاة يقلون
المبدأ على علته والآخرون يرفضونه كذلك ويكثر النسي والتوكيد
بين المتحاربين وتقل البراهين لأن أسباب قول مبدأ أو رفضه
عند أغلب العقول راجعة الى الشعور وهو لا يتأثر بالبرهان
الا قليلا

وبما الحدل يرداد احتداماً يسمو المبدأ الهوييا وتميل اليه
الباتة لعله أنه غير متفق عليه لأن الشباب ولوع بالاستقلال
وأحص ميوله معارضة المبادئ الى درج الفوم عليها وهكذا
يتدرج المبدأ في النمو ولا يلبث أن يستعنى بداته عن البصراء

فيأخذ في الانتشار بمجرد عدوى التقليد وهي ملكة شائعة بين
الناس جميعاً بدرجة عالية كما هي في آرائهم من القردة لشهادة
العلم الحديث

متى دخل المبدأ الحديد في دور الانتشار لعامل العدوى
فقد دخل في دور الحجاج وسرعان ما يقلبه الرأي فيكون له من
ذلك قوة دقيقة بمادة ترسله الى العقول شيئاً فشيئاً ، وتنبئ له فيها
بيئة خاصة وتوحد له ملكة يسكنها ويصير كأنه العثردق فاسباب
في جميع التصورات وتحلل كل ما يصع في عصره الى أن يصير هو
وآثاره جزءاً من المورثات العادية التي يخضع لحكمها بالبرية وبذلك
يتم له الفور ويلتحق بالمشاعر فتكون له درعاً يقيه دهرأ طويلاً
ومن المبادئ الى يقوم عليها بقاء الحضارة ما بقى مريته
للطبقات الراقية كالتى تقوم بها الصور أو الفلسفة ومنها ما يبرل
حتى يبلغ أسفل الطبقات كالدين والسياسة على الأخص ولكها
لا تهبط الى هذا الحد الا مشوهة جداً واذا بلغت عظم تأثيرها في
الفوس السادحة التى لا قبل لها على البحث فيها هبالك يكون
المبدأ علماً على أمر لا سبيل الى مقاومته وتدفق آثاره بعد
كأنها السيل صغت السدود عن رده ومن السهل أن يحد
الانسان في كل أمة مائة ألف رجل يقدمون أنفسهم ضحية لمبدأ
تمكن من هوسهم حينئذ تظهر الحوادث الحسام التى تعبر وحه

التاريخ . ولا يقدر على القيام بها الا الجماعات فبالادباء ولا أهل
الفنون ولا الفلاسفة هم الذين رفعوا راية الاديان التي دانت لحكمها
الديا وشادوا الممالك التي امتد سلطانها من وحة الكرة الى وحةها
الثاني وأحدثوا التورات الدينية والسياسية التي قلت كيان أوروبا
بل الدين فعلوا ذلك هم الجهلاء الذين اشتد تمكن المبدأ في نفوسهم
فهايت عليهم في سبيل نصرتهم بهذه العدة الصئيلة بطريقاً القوية
فملا فتح رحل صحارى بلاد العرب فسماً من الديا الاعريقية
الرومانية وشادوا دولة من أصبح الدول الى ورد ذكرها في
التاريخ ومثلها هاهنا العدة الادبية أعنى سلطان المبدأ على النفوس
وقف حيد (العهد) المواسل في وحة أوروبا بأجمعها

للاعتقاد قوة لا يعلاها إلا قوة اعتقاد مثلاً فليس للإيمان
عدو إلا الإيمان والبصر حليمة متى كانت القوة المادية التي
تستترصه حادمة لشعور ضعيف ومعتقدات توليها الوهن لكن
إذا اصطدم بإيمان يماثله في قوته أصبح الحرب عواناً وحصار البصر
مبوطاً بالأحوال الثانوية التي تكتسب الغالب منهما وأهمها ما كان
راجعاً الى قوة الحاق وتنويع الانقياد وحسن النظام وإذا تأملنا
تاريخ العرب أيام فوحاتهم الأول — وأول الفتوحات أصعبها
في العادة وأهمها — رأينا أنهم وحدوا أمامهم حصوماً صعدت
أحلافهم الادبية وإن كان نظام حديثهم محكمًا تقدمت حيوشهم

أولاً الى البلاد السورية فلم يحدوا فيها إلا جيشاً يزبطياً مؤلفاً
من الاحراء الذين ليس لهم ميل الى تصحية أنفسهم في سبيل
عرض ما وكانت شدة ايمان العرب تريد قوتهم العددية عشر
أمثالها فلم يعاوا في تمريق شمل تلك الحيوش التي لم يكن لها
حيال تقابل من أحله وكذلك استطاع هرقليل من الاعريق
تمكن منهم حب المدينة من تشتيت شمل حيوش (اكرسيس)
العظيمة وكانوا يعحرون وتغير نتيجة الحرب لو أنهم اشتكوا
قل ذلك سضع قرون مع الجيش الرومانى من الواضح أنه اذا
التقت قوتان أدويتان متساويتان كان العور لا حكمها نظاماً
لذلك علمت حيوش أهل (العهد) الفرنساوية حيد (الشندان)
لتساوى المريقين في قوة الاعتقاد وتوفى الأولين في حسن المطام
ومن هنا يتبين أن البصر على الدوام حليف المؤمنين
لا فرق في ذلك بين السياسة والدين وادا طهر الآن أن المستقل
للاشتراكين رغم فساد مذهبهم فساداً مريماً فذلك لأنه ليس
من صح اعتقاده في هذا الزمان غيرهم أما الطوائف التي بيدها
رمام الأئم في عصرنا فاهلها فقدت اليقين في كل شيء حتى في مقدرتها
على الدفاع عن نفسها من سيول البربر التي كانتها من كل حاب
متى قطع المبدأ أدوار التعثر والتحوير والبعير والحدل والانتشار

واستقرت صورته الأخيرة ودخل في روح الجموع صار عقيدة
أعنى حقيقة مطلقة لا يتطرق اليها الشك ولا جدال فيها وانضم
بذلك الى المعتقدات العامة الى تقوم بها حياة الأمة وعمومه
يجعله دأشأن ممتار من حيث التأثير في النفوس ألك لتحد
أرمان التاريخ المظني كعصر (اعسطس) وعصر (لويس
الرابع عشر) هي التي خلصت فيها المبادئ من أدوار تكويها
واستقرت بعد أن نطلت الماطرة عليها وتمت لها السيادة على
الأفكار هالك تصير المبادئ مارات تصع بألوانها الصوئية
كل ما أشرقت عليها

متى انتصر مبدأ حديد طهر أثره في عناصر المدينة كبرها
وحقيرها ولكيه لا يحدث أثره كله إلا اذا دخل في روح
الجموع فهو يرل من العقول السامية التي طهر فيها الى الطمقة
الى بليها ثم الى التي بعدها متحوراً متغيراً حتى يكتسى حلة تحله
من نفوس الجموع محلاً مقبولاً وهالك يتم له المور واد داك
يصاع في كلمات وحيرة ودرما صيع بكلمة واحدة تثير في الخيال
صوراً قوية أحادة أو مريعة لكن مؤثرة على كل حال مثل
ذلك الحنة والبار في القرون الوسطى كانا لمطين قصيرين وكان
لها قوة سحرية تفعل في كل شيء ونسر للنفوس السادحة كل
شيء ولكلمة (اشتراكية) في محيلة العملة في هذا العصر صورة

ساحرة جامعة ذات قوة تأخذ بمجامع النفس وهي تثير صوراً
مختلفة بحسب الجموع التي تنتهي إليها وكلها مؤثرة جداً رغم سداختها
تمثل كلمة (اشتراكية) في ذهن الطرى المرئى صورة
حرة تساوى الناس فيها فتتعاون بالسعادة الكاملة في ظل الحكومة
وتمثل للعامل الألمانى حارة طبق دحائها وطبق رجال الحكومة
يقدمون لكل قادم أطباقاً من لحم الخبز والكرب المملح
وداناً من الحمة ومن المعلوم أن كلا الرحلين عالم المساواة وعالم
الكرب لم يلتفت أبداً الى معرفة مقدار المقسوم ولا الى عدد
المقتسمين ذلك لأن أحص صغائر المبدأ اذا ثبت أنه يأخذ
حيثه بصورة مطابقة لا يؤثر فيها الطر ولا يصعبها الاعتراض
اذا تم استقرار المبدأ رويداً رويداً حتى صار عقيدة كان فوره
طويل الأمد وحط كل دليل يقام لوعرخته نعم مصيره أن
يباله ما نال المبدأ الذى حل هو محله فيهرم ويتداعى ولكنه لا يبلغ
درجة البلى إلا بعد أن يقطع في قهقره أدواراً من التعبير
والمسح وذلك لا يتم إلا في عدة أحيال ويكون قبل موته
قد عاش دهرأ مصماً الى المادى القديمة الموروثة الى يعبر عنها
بالأوهام ويحترمها الناس رغم ذلك فلمبدأ القديم سلطان على
الدهوس يبقى وان حرد اسمه من معناه وصار صوتاً لا مرّده له
في القلوب

وهكذا يدوم كل ما تقدم عهده من تراث الآراء والاتفاقات
أى المؤلفات التى يكاد المرء يعدها احتراماً وهى لا تحتل النقد
لحظة واحدة لو أنها همسا بالبحث فيها ولكن القليل من الناس
يبحرأ على البحث في أفكار نفسه كما أن قليلاً من الأفكار يبقى
إذا تناوله أقل بحث سطحي

الأولى أن لا يقدم المرء على هذا البحث الخفيف ومن
حسن الخط أنه يعيده لأن النقد ملكة راقية نادرة جداً
والتقليد ملكة شائعة جداً ولذلك يرى جمهور الناس يقلون
المبادئ كما تأسهم على علائها محض شيوعها أو من طريق
التربية ومن هنا اشترك السواد الأعظم من كل أمة وكل زمان
في حد وسط من التصورات والمعقولات فأشبه بعضهم بعضاً
شبهاً قوياً حتى أن الباطر الى قلوبهم وآدابهم وفلسفتهم يعرف
مها الرمن الذى عاشوا فيه وان بعد دهر مديد وعلة ذلك التشابه
الصوى ما سافله الحلف الى السلف بالوراثة والتربية والبيئة والعدوى
والآراء نعم ليس الحلف صورة تامة للسلف إلا أن الذى
اتحداه هو كيفية تصور المعقولات والمحسوسات وذلك يؤدى
بالضرورة الى نتائج متشابهات

ولنا أن سر من هذا لأن روح الأمة إما يتكوّن
من مجموع تلك التقاليد والمشاعر والمبادئ والمعتقدات وكيفية

تصور المعقولات وقد علمنا أن قوة هذا الروح من قوة ذلك
المجموع وهو الذي تدوم بدوامه الأتم فاذا ما اعتراه الانحلال
تقوص نبياتها فهو قوتها الحقيقية وهو سيدها الحقيقي كثيراً
ما مثلوا ملوك البلاد الأسيوية مستبدين مبادئهم أهواءهم على
أن تلك الأهواء محصورة في دائرة لا تخرج عنها لأنك لا ترى
قوة المجموع التي أشربا إليها أشدّ منها في بلاد الشرق والتقاليد
الدينية التي اهترت أركانها عندنا لا تزال على متانتها الأولى عديم
وأكثر المستبدين عتواً لا يصادم عديم هدى السيدين الرأي
والسنة لأنه يعلم حق العلم أنهما أشدّ بأساً منه وأعظم سلطاناً
اليوم يوحد الرجل المتحضر في عصر من أشدّ أدوار التاريخ
محبة دور لا تزال المطاطرة دائرة فيه على المعتقدات لأن
المبادئ القديمة التي تشتق منها الحصار فقدت بهودها ولما
تستقرّ المبادئ الحديثة اليوم لا يدرى الإنسان مقدار أحد
الرأي والعادة من النفوس ولا الذي كان يلماه المدع من وراء
تهجمه على هاتين القوتين ولكنه يعرف ذلك إذا رجع إلى
تاريخ الحصرات القديمة أو إلى ما كان مدعربين أو ثلاثة
يروى لنا بعض الجهلاء من القصصيين أن الأعريق كانوا
أحراراً وما كانوا إلا عبيداً للعادة والاعتقاد كان يحيط بالواحد
منهم دائرة من المعتقدات يقدسها وما كان يحظر لأحد أن

يحادل فيما حرى عليه قومه بل كان لذلك حاضماً مستسلماً وما
عرفت الدنيا الا عريقية الحرية الدينية ولا حرية الحياة الذاتية ولا
الحرية من أى نوع بل أن شرائع (آثينا) ما كانت تتيح للوطني
أن يعيش عميل عن الجماعة ولا أن يتمتع عن إقامة حفلات
الأعياد الوطنية كما يقيم الصلاة وما كانت حرية الارمان الاولى
الا حصوع الرجل لنير مبادئ البلد التابع له حصوعاً تاماً لنوعها
فيه درجة المشاعر اللاتهنئية ولو أتيح لاهل بلد أن يكونوا
أحراراً في أفكارهم لما عاش هذا البلد يوماً واحداً بين تلك الجموع
التي كان وجودها قائماً على حرب مستمر ولم يبدأ دور انزواء
الآلهة والبطانات والمداهب الا من اليوم الذي حار فيه الطرفها
أما في حصارة هذا العصر فقد تهدمت على التقريب المبادئ
الى كانت تستمد منها قوة العادة والمعتقد فصعب لذلك أثرها
في النفوس ودخلت في دور السلاء الذي تصير فيه المبادئ
القديمة أوهاماً وما لم يحل محلها مبدأ جديد فالموصى حليلة
الأفكار ولهذا الموصى فصل هو احتمال الخذل والمناطرة
على الكتاب والعلاسفة والمفكرين أن يشكروا هذا الدور
وأن يسارعوا بالاستفادة منه لا هم لن يروه ثانياً منى انقصى
قد يعتبر هذا الدور دور يقهر وسقوط الا أنه دور يتمتع العقل
فيه بالحرية التامة فهو لذلك لا يحتمل الدوام طويلاً لأن أحوال

الحضارة الحاصرة تشعر بأن الأمم الأوروبية سائرة الى دور
لا يقل الخذل ولا محتمل الحرية وسببه أن المداهب الحديدية لن
يثبت قدمها الا اذا حطرت البحث فيها وأصبحت كالتي سبقها
لاتطبيق المعارضة

لا يزال الانسان في هذا الرمان يبحث عن المبادئ التي
يشاد عليها ساء الاجتماع في المستقبل وهذا هو الخطر الذي
يتهدده لأن أهم شيء في تاريخ الأمم وأكبر مؤثر في حياتها هو
تغير المبادئ الأساسية لا الوراثة ولا الحرب اد من السهل
اصلاح ما أفسده ومن لو ارم هذا التعبير تعبير جميع عناصر
المدنية والثورة الوحيدة التي يحشى منها على حياة الأمم هي التي
تحدث في الافكار

ليس الخطر في اعتناق الامة مبدأ حديداً بل الخطر الا كثر
في اضطرارها الى الالتغال من مبدأ الى مبدأ حتى تعثر على الذي
يصلح أساساً يقام عليه ساؤها الحديد كذلك ليس الخطر في كون
المبدأ غير صواب فقد كانت المبادئ الدينية التي عشنا عليها
حتى الآن خطأ بل هو في التحارب العديدة التي لاند منها المعرفة
ملائمة المبادئ الحديدية لاحوال الأمة التي تحاول العمل بها
ذلك لأن الجموع لا تشعر لسوء الخط هوائده المبادئ الا
بالتحربة ، نعم لاحاجة لأن يكون الانسان صليعاً من علم النفس

ولا من علم الاقتصاد ليسىء بأن العمل بمقتضى مبادئ الاشتراكية
الخاصة يقضى بالأم إلى أردل درك الالمحطاط وأخرى صور
الاستعداد لكن أين السيل لمس الأم وقد افتتنت تلك
المذاهب من قول ذلك المحيل الجديد

لقد علمنا التاريخ مايجم عن الدعوة إلى الأفكار فى زمان لم
يتها أهل لقبولها ولكن الإنسان لا يلمس العبرة من التاريخ
فقد حاول (شارلمان) أن يعيد الدولة الرومانية إلا أن مبدأ
الوحدة لم يكن ميسوراً تحققة مات عمله عمونه وكذلك كان
شأن (نابليون) واستبعد (فيليب) الثانى حدة ذهنه وسلطان
أسبابا وكانت لها السيادة بين الأمم فى مقاومة حرية البحث
التي كانت تتشرفى أوروبا باسم (البروتستنتية) فلم يفلح وكانت
عاقبة هذه المقاومة وقوع أسبانيا فى حراب والمحطاط لم تقم لها
من بعده قاعة وفى عصرنا هذا قام متهموس على رأسه تاح بدعو
إلى مبادئ وهمية مدفوعاً بذلك الشعور الفاسد الذى امتارت به
أمتة يريد توحيد الأمم المتحدة فى الحس فكان من وراء ذلك
وحدة المانيا ووحدة اناليا وصيام أقليمين من أملاكها وأرواثا
إلى أمد بعيد افتتنت الأمم عذهب فاسد فقالوا قوة الحسد
فى كثرة العاد وشروا على القارة الأوروبية لسط حرس
شاكى السلاح وعاقبة ذلك الافلاس لامحالة ولو أن هذه

الجيش الحرارة الدائمة أنقت لها نقيه من المال والوحدة والسلطان
فسبأتى عليها مذهب الاشتراكيين في العمل ورأس المال وإبطال
حق الملكية الشخصية وإقامة الملكية العامة مقامها
من المادى، الفعالة في أحوال الأمم مبدأ الحسية كان
السياسيون قديماً يكبرون شأنه ويحملونه قطب دائرة سياستهم
وكان له الأثر السىء، فان أوروبا وقعت بسبب طموحها الى تحقيقه
في أشد الحروب صرراً وحماها تبيت متأداة سلاحها وسيقودها
جماء الى الدمار والعوصى والسبب الوحيد الطاهر الذى كانوا
يدافعون به عن هذا المبدأ هو أن أقوى الأمم وأعمدها عن
الخطر أكرها وأكثرها أهلاً ومع ذلك كانوا يتهامسون بأن
مثل هذه الأمم أسهل فتحاً وأقرب مبالاً وقد طهر الآن أن
أصعرها وأقلها عدداً كالبرتغال واليونان وسويسراً وبلجيكا
وأسوح وأميرات اللقان أعدى الخطر لهد كان مبدأ الوحدة
سبب حراب إيطاليا وكانت راهرة فأصحت على شها حرف
الثورة والافلاس اد بلغت ميرابية جميع ولاياها مليارين وكانت
فل الوحدة المليارية لاتبلغ (٥٥٠) مليوناً
لكن ليس في طاقة الانسان أن يوقف تيار الافكار بعد
أن تتصل بالعوص ولا بد لها من اكل دورتها وحماها في

العالم هم الذين أعدم القدر ليكونوا أول ضحاياها وليس إلا
الغيم تمشي طائفة خلف الدليل الذي يقودها إلى المدحة فعلينا
أن نحى الرؤوس أمام المسدأ لأنه متى بلغ في تطوره درجة
معلومة لا ينفع فيه رهان ولا يستظهر عليه بيان ولا تتخلص
الأم من رقة مسدأ استولى على قلبها إلا عرور الدهور أو ضعف
لثورة وقد يكون الاثنان لازمين وما أكثر الاوهام التي
فترستها الأساية فافترستها على الدوام

الفصل الثاني

تأثير المعتقدات الدينية في تطور المدنية

في رحجان تأثر المعتقدات الدينية — في اسها كانت على الدوام الركن
الا كبر في حياة الامم — في ان اكبر الحوادث التاريخية والنظامات السياسية
والاجتماعية مستتقة من المبادئ الدينية — في انه يتولد مع كل مبدأ ديني جديد
حصارة جديدة — في قوة الجمال الديني — اثره في الخلق — في انه يوحه
جميع الملكات نحو عرص واحد — في ان تاريخ الامم السياسي والعقبي والادبي
متولد من معتقداتها — في ان اول تعبير في المعتقدات الدينية يحدث تقلبات
كبيرة في حياة الامة — امثلة شتى

أهم المبادئ التي تسير عليها الأمم وتعتبر مدار التاريخ وعماد
الحضارة المبادئ الدينية فلها من الشأن ما يجعلها بحد للكلام
عليها فصلاً مستقلاً

كانت المبادئ الدينية على الدوام أهم عصر في حياة الأمم
وهي لذلك أهم عصر في تاريخها فأكثر حوادث التاريخ التي
أنتجت أعظم الآثار هو قيام الديانات وسقوطها وأول المسائل
الأساسية في الأرمان العارة وفي الأرمان الحاصرة المسائل
الدينية ولو أن الاساسية رصبت عوت جميع آلهتها لكان هذا

الحادث أعظم الحوادث التي تمت فوق وجه الأرض منذ ظهرت
المدينيات الأولى

لا يسعى لنا أن نسمى أن جميع النظمات السياسية والتدبيرات
الاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية وأن
الآلهة هي التي لعبت أكبر دور في الحياة الإنسانية وأن الدين
أسرع مؤثر في الأخلاق لا يدايه مؤثر اللهم إلا الحب والحب
دين إلا أنه دين دائي غير دائم وإذا أردت أن تعرف على أي
حال تكون الأمة إلى امتاحتها حيالها فاطر إلى فتوحات العرب
والحروب الصليبية والاصطهاد الابدلسي وحال اسكترا أيام
(الپوريتيين) و (سانت بارتلمى) في فرنسا وحروب الثورة
الفرنساوية إلا أن للأوهام سحراً مستمراً شديداً التأثير يتغير
به المراح العقلية تغيراً كلياً خلق الإنسان الآلهة ولكنها ما لبثت
أن استعبدته وإبها بنت الأمل لا بنت الخوف كما وصفها
(لوقريس) لذلك كان تأثيرها سراً مديناً لقد كان من تأثيرها فيه
أن جعلت عقله متشعباً بفكرة السعادة فامتارت بذلك على كل
مؤثر سواها وقصرت الفلسفة عن إدراك هذه العاية حتى الآن
نتيجة كل حصاراة ان لم تقل عايتها وكل فلسفة وكل دين
تكوين حالات عقلية خاصة بمصها يقتضى السعادة وبمصها
لا يقتضيها وترجع السعادة إلى أحوال النفس أكثر مما ترجع

الى الاحوال الخارحة عنها فلرما كانت الضحايا فوق موافدها
أسعد من قاتليها وكم فالح أرض يديه يقصم الكسرة مبروكة
بالسوم أسعد بكثير من موسر متدهق الثروة تكاثفت حوله الهوم
ومن دواعي الاسف أن الحصار في هذا الرمان خلقت
للانسان جمعاً من الحاجات ولم تعطه وسائل دفعها فتولد من ذلك
عدم الرضاء في الموس قالوا الحصار بنت الرقي نعم وهي أم
الاشترائية وأم الموصى وهما صوتان مريعان تصيح بهما جموع
قل ايمانها فاستولى اليأس على قلوبها أين حال الاوروني الذي
تولاه القلق وهاحت أعصابه وأصبح غير راض بحظه من حال
الشرقي الراصي عما قدر له اما الفرق بينهما في حالة النفس دون
سواها واما يعير الامة من يعير من تصورها ويجعلها بهكر
وتعمل غير ما عملت

يجب على الهيئة أن تسمى في اتحاد حال عقلية يكون فيها
البرد سعيداً والا فاحل الامة قصير فما قامت الامم حتى الساعة
الا متكئة على حيال فيه قوة احتداد الموس وما سقطت
واحدة منها الا بروال سلطان هذا الحيال

من أكر خطأ هذا الرمان اعتقاد الناس أن النفس تحدد
السعادة في الاشياء الخارحة عنها فن ان السعادة فيها ونحن
الذين نوحدها وشدها كانت بعيدة عما انا هدمنا حيال العصر

الماضى فصرنا نرى أنه لا حياة لنا من بعد هذا الخيال وانا اذا لم
نوفق الى الاستعاضة عنه فانا هالكون

أكر المحسين لى الانسان الدين يحب على الامم أن تقيم
لهم أحم المائيل من الذهب الوهاح هم أولئك السحرة القادرون
الدين خلقوا لها الخيالات أولئك يولدون أحيانا بين الشر
ولكنهم لا يولدون الا قليلا أقاموا أمام سيول الآمال العاوية —
وهي الحقائق التى لا قدرة للانسان على معرفة غيرها وفى وحده
هذه الدنيا العيوس الحامده — حجابا من الاوهام الموية فسروا
عن الانسانية وسترُوا ما فى الحياة من عصاصة ومصصر وخلقوا
حات العيم فيط بها الرحاء وتوالت الاحلام

وإذا رجعا الى الجهة السياسية علما أنصا كيف كان تأثير
المعتقدات شديدا والسبب فى قوة الدين العظيمة كونه العامل
الوحيد الذى تتوحد به وفما ما مافى الأمة ومشاعرها وأفكارها
فيقوم المبدأ الدينى بذلك دعوة واحدة مقام غيره من العناصر الى
يتكون منها روح الأمة والى لا تفتح هذه النتيجة الا اذا أرت
وتم لصحها بالوراثه نعم لا يتغير مراح الأمة العقلية مجرد استيلاء
دين على قلبها غير أن جميع القوى تتجه نحو غاية واحدة هى الانصار
للمعتقد الحديدي وفى ذلك سرفوتها العظمى لذلك نتحد أن قيام
الامم بأعظم الاعمال كان فى عصر هذا التطور الوقتى أعى عصر

تدينها وتأسيس أكبر الممالك التي أدهشت العالم كان في عصر
تدينها كذا أتحدت بعض قبائل العرب بمكة محمد (صلى الله
عليه وسلم) فاستطاعوا قهر أمم كانت لا تعرف منهم حتى الاسماء
وشادوا تلك الدولة الكبرى

والذي يجب الالتفات اليه قوة تمكن المعتقد من النفوس
لاحقيقة هذا المعتقد لا فرق بين أن تكون الدعوة للاله (مولوح)
أو لغيره من هو أعرق في الهمجية بل ربما عظم نفوذ المعبودات
كان فاسي القلب ومن المستبدين لأن الآلهة التي تعالت في
التسامح واللين لا تشد عرائم عبادها ومن أحل ذلك ساد أتباع
محمد بتشده وامتد سلطانهم على قسم كبير من الدنيا ومساطويلا
ولا تزال لهم حشية في النفوس وأما أنواع (بوذا) الهادي فأهم
لم يأتوا عملاً نافعاً وقد نسيهم التاريخ

وعليه يتضح أنه كان للدين شأن كبير في سياسة الأمم لانه
هو العامل الوحيد سريع التأثير في أخلاقها نعم ان الآلهة ليسوا
حاليين ولكن المبدأ الديني باق لا يروى يعني زماناً ثم يشط
متى ظهر رب حديد وهو الذي استطاعت به فرنسا وحدها
مدقرون أن تقاوم أوربا كلها فعرف البشر مرة أخرى درجة
تأثير المعتقدات الدينية لأن الأفكار التي امتلكت العقول في
ذلك العصر كانت في الحقيقة دينا حديداً يصح في الأمة من روحه

فألمشها لكى الآلهة التى روت من خلال تلك المعتمدات
كانت لطيفة المادة فلم تدم الا قليلا على أن سلطانها مدة وجودها
كان سلطاناً كبيراً

بعد ذلك نقول ان قدرة الديانات على تغيير روح الأمم قدرة
عالية فقاما تدوم المعتمدات على قوتها الأولى رسماً يكفى لتغيير
الخلق تغييراً تاماً سببه أن قوة الأحلام لا تلت أن تهتر ويرجع
المأخوذ لسكرتها لعصر الرجوع الى اليقظة فتظهر حقيقة الخلق
العتيق

يظهر على الدوام حاق الأمة حتى وسلطان الدين في منتهى
شدته فتراه في الصبغة الى الصنع بها الدين واد الأمة الى اعتنقه
وفي المظاهر التى تنشأ عنه انظر الى الفرق العظيم بين المعتد
الواحد في الكثرة واسمايا وفارسا نجد أنه كان من المستحيل
ظهور (الروتستنتية) في اسمايا ولا أن ترصى الكثرة باقامة
الاصطهاد (محكمة العديب) بين ربوعها بل تأمل حال الامم التى
دانت بالروتستنتية تطهر لك أحلافها الاساسية الاولى باقية عليها
وأما بالرغم من اقتسامها بعتقدها لارال مجموعة تميرات مراحها
العقلى أعى الاستقلال ومصاء العريضة وتدر الأمور قبل الأحد
بها وإباء الخبوع والاستدلال لسيد يصدر في أمره عن الهوى

يتولد تاريخ الأمم السياسي والأدبي والقي من معتقداتها إلا
أن هذه كما تؤثر في الخلق تتأثر أيضاً به فمنايخ حياة الأمة خلصها
وديها والأول دائم من حيث صفاته الأولى وعدم تعبيره هو
السبب في وحدة تاريخ كل أمة واطراده أما المعتقدات فقابلة
للتغير وتعيرها هو السبب في أن التاريخ يحكي كثيراً من
الانقلابات في الأمم

أقل تعبير يطرأ على معتقدات الأمة بحر وراءه تعبيرات
عدة بعضها أثر بعض وقد قدمنا في الفصل السابق أن أهل فرنسا
في القرن الثامن عشر كانوا يحالمون حداً في الطاهر أهلها في القرن
السابع عشر وما السبب في هذا إلا أن العقل كان انتقل بين
قرن وقرن من اللاهوت إلى العلم وعارض التقليد بالطرف
والحقيقة العقلية بالحقيقة العقلية فكان هذا التعير في التصورات
كافياً وحده لا أحداث التفاوت بين عصر وعصر وإذا اقتصينا آثاره
رأينا أن الثورة الفرنسية والحداث إلى تلها ولا تزال موحودة
فيها إنما هي نتيجة لازمة لتطور حصل في المعتقدات

اليوم تميل الأمم القديمة إلى السقوط فهي تهتر من الوهن
ونظاماتها تنداعى واحداً إثر واحد وعلة ذلك فقدانها كل يوم

شيئاً من إيمانها الذي قامت عليه حتى الآن فاذا فقدته كله قامت
حتماً مقامه حصارة حديدية مؤسسة على معتقد حديد لاس
التاريخ يدلنا على أن الأمم لا تحيي طويلاً بعد احتفاء معبوداتها
وأن الحضارات التي حاءت مع تلك المعبودات تذهب بدهامها
ألا لا شيء أفعل في التخريب من أثر معبود يموت

الفصل الثالث

شأن عطاء الرجال في تاريخ الأمم

في ان الرقي العظيم يتم في الامم على يد نفر قليل من اهل العقول السامية حقيقة شأن هؤلاء — في اهمم يمثلون جميع مجهودات شعوبهم — امثله مترعة من الاكتشافات العظيمة — شأن عطاء الرجال في السياسة — في اهمم موضع حلول الحيل السائدة على امتهم — تأثر عطاء المتفوسين — في أن كبار الكشمين يدلون حصارة الامة — في ان المتعصين والمتفوسين يخلقون التاريخ

عد ما بحثنا في تقسيم الأمم وبيان المروق التي يختلف بها بعضها عن البعض الآخر انصح لنا أن الفارق بين الاوروبيين وبين الشرقيين هو اختصاص أولئك بهريق راق من العطاء دون هؤلاء فلأت على طرف من شأن هؤلاء الساء

تجتمع مقدرة الشعب كلها في هذه الطائفة الصغيرة المؤلفة من الرجال المتأربين أولئك الذين إذا أحرصهم من كل حيل سقط مستوى الأمة العقلي سقوطاً كبيراً وإلى هذه الطائفة يرجع الفصل في الرقي الذي وصلت اليه العلوم والفنون والصناعة وبالجملة جميع هروع الحصارة والتاريخ يدلنا على أن مديون لهذا

الرهط نكل ذلك ومع كون المجموع مستفعا بهذا الرقي فان الناس
لا يرتاحون عادة للتفوق عليهم وان كان السبوع آتيا من بينهم
لذلك ذهب عطاء المفكرين وكبار المكتشفين ضحية عصب
قومهم في غالب الأحيان وما درى القوم أن عرس الأحيال
الماضية وثمره ماضيها إنما تنمو في بستان تلك العقول الناعمة التي
هي قطوفها الدانية أولئك هم معد الأمم وكل فرد من أفرادها
وان صغر يصغرهم ويمر لشأنهم لا يهم لا يحددون اتفاقا ولا
معجزة من المعجزات ولكمهم ثمرة الماضى الطويل فيهم تمثل
عظمة عصرهم ومكانة أمتهم وكل ما ساعد على انشاؤهم أرهأهم
فانما يساعد على انتشار الرقي الذي تستفيد منه الإنسانية لكما
إذا تركنا أصعبات أحلامنا بالمساواة العامة تعشى بصائرنا كما
أول صحاياتها فما المساواة إلا بين المسحطين وهي مطمح آمال
صعاليك العقول يخلصون بهم وهم بأحلامهم من التمساء إنما
صدمت تلك الأحلام عند المتوحشين أما الأمم الراقية فلا
سبيل للتساوى بين أفرادها إلا إذا تدرجت في اسقاط كل رفيع
فيها مما تعثر به مكانها حتى يهبط الى أسفل مستوفيا

على أن شأن العطاء ليس على قدر ما هو شائع عند الناس
مما بلغ أثره في رقى الحضارة لانه يحصر كما قدما في تمثيل
مجهودات الأمة كلها فاكشافات المكتشفين ثمرة اكشافات

كثيرة سابقة وهم إنما يقيمون ساء من أحجار هندوها المتقدمون
على مدى الزمان ولكن المؤرخين مبالغون لطبيعتهم الى تبسيط
الاشياء تراهم يلصقون بكل اكتشاف اسماً من الاسماء مع أنه
لا يوجد بين الاكتشافات الكبيرة التي عبرت وجه البسيطة
كالطبعة والارود والبخار والتلغراف الكهربائي ما تحوز بسنته
إلى رجل واحد ومن تأمل في تاريخ هذه الاكتشافات وحدها
ثمرة ألعاب سابقة والمكتشف الأخير إنما هو شرفه ذلك الساء
كان العالم (عاليلي) أول من لاحظ تساوي تموجات المصباح
المعلق في الفضاء من حيث الزمن فهذا الطريق بذلك لاكتشاف
الساعات المصنوعة اصفاطاً تاماً (كروومتر) ومن هنا استطاع
الملاحون إيجاد ما يهتدون به في طريقهم فوق الماء وبارود المدافع
مأخوذ من (البار الاعريمية) المحولة تحويلاً لطيفاً والآلة
البحارية عمرة اكتشافات عديدة اقتضى كل واحد منها مجهودات
كثيرة ولو أن رجلاً من الاعريق أعطى فوق دكاء (أرشميد)
مائة مرة لما توصل إلى اختراع قاطرة السكة الحديدية ولو
استطاع اكتشافها لما استفاد منها إذ كان يعود في إرارها إلى
عالم التصيد أن يتقدم علم (الميكانيكا) إلى درجة لم يصلها إلا بعد
ألى عام

يحيل للناس أن عظماء السياسيين غير مرتطين برباط مع

الماضي ولكيهم في الحقيقة ليسوا أقل أرساطًا به من المخترعين
والمكتشمين ولقد طاش نظر بعض الكتاب مثل (هيجيل)
و (كوزان) و (كارليل) وغيرهم لاسهارهم بساء أولئك العظماء
الذين يقلبون الأمم ذات اليمين وذات الشمال ويعيرون حياتها
السياسية فأرادوا أن يرلوهم مسارل الآلهة الذين لهم وخدم سلطان
على مصير الأمم لا شك أن في استطاعة أولئك العظماء تعكير
تطور الأمة لكن مقدورهم لا يصل الى تعيير مجرى حياتها
وليس في استطاعة عقل كعقل (كرمويل) أو (نابليون) أن
يأتى بعمل مثل هذا ورب فاتح عظيم يهدم المدن بالحديد والبار
ويبيد الرجال ويحرب الممالك كما يحرق الطفل دار تحف مائت
ككور الصون الا أنه يسعى أن لا يعتز هذه القوة الهادمة
فحطى تقدير شأن أولئك العظماء إذ ليس لآثرهم بقاء إلا إذا
عرفوا كيف يستخدمون مميزاتهم حيث تكون حاجات عصرهم
كما فعل (قيصر) و (ريشليو) وحيث قال سب الحقيقى في
بحاحهم موحود قلبهم بمن طويل ولو طهر الرحلان قس
عصرهما نقرين أو ثلاثة قرون لما أتيح للاول أن يحصع الجمهورية
الرومانية العظيمة الى ارادة سيد قاهر ولا تمكن الثانى من إيجاد
الوحدة المرساوية وعليه فكراء السياسة الحقيقيون هم الذين
يمثلون حاجات الامم الى اقترت والحوادث الى أتم الرمان معداتها

ويرشدون إلى الطريق الذي يجب السير فيه وقد يحور أن يكون هذا الطريق مجهولاً من الجميع ولكن الأقدار التي قضت تتطور الأمة كانت لابد أن تدفع إليه الأمم إلى أحد أولئك القادرون مؤقتاً ومأمها مثل هؤلاء كمثل المكتشمين يتلون ثمرات مجهودات طويلة ساقية

لا يدعى أن يذهب إلى أبعاد من ذلك في المقابلة بين طبقات عطاء الرجال فلمكتشمين شأن كبير في تطور الحضارة المستعمل ولكن لا شأن لهم مباشرة في تاريخ الأمة السياسي ذلك لأنهم من مخترع المحراث إلى مخترع التامراف ومن يديهما من أصحاب المخترعات التي يتمتع بها الناس لم يكن لهم من الصفات الخلقية ما يمكنهم من إقامة دين أو افتتاح مملكة أعز أهم لم يكن لهم من المواهب ما يستطيعون به تغيير التاريخ تغييراً بادياً وتحدثهم من تلك الصفات آت من كونهم أهل تفكير وتدقيق والمفكر لا يحفل بما في المفكورات من الأشكال والتعقيد وعلمه هذا يؤثر في بقیه فيضعفه ومن جهة ثانية تراه لا عناية له بالأطباع إلا قليلاً لأن الذي يستحق ذلك منها نادر فلا يحمل الواحد منها والحلاصة أن المكتشمين لا يعيرون الحضارة إلا مع الرمن وأما المتعصبون ذوو العقول الضيقة المتأرون بقوة الخلق وشدة الشهوة فهم الذين يقدررون على إقامة الأديان وتأسيس

الممالك وقلب نظام الشر هذا نظرس الراهب أقام صوته ألوف
الالوف ورمى بهم نحو الشرق وهذا صوت محمد (صلى الله عليه
وسلم) كان له قوة التأثير ما انتصر به على الدنيا القديمة الاعريقة
الرومانية وراهب حامل الذكر مثل (لوتر) أقام أوروبا وقدها
في محر من النار والدماء لكن الجموع لا تسمع صوت (عاليلى)
أو (بيوتى) والخلاصة أن عظماء المكتشفين يعجلون سير
المدينة والمتعصبون والمتهوسون يحلقون التاريخ

ليس التاريخ كما يسطروه إلا سرد الحوادث التى احتملها
الإنسان ليخلق له حيالاً بعدة ثم يبيده وليس لمثل هذه
الخيالات قيمة في نظر العلم إلا كسراب الصياء فوق الرمال
المتحركة في اليبداء

لكن المتهوسين الذين خلقوا هذا السراب هم الذين قلبوا
العالم رأساً على عقب ولا يرالون يحصعون الناس لسلطانهم وهم
في القصور ولا يرالون يعملون في أحلاق الأمم ومصيرها فلا
يسعى لها أن تتجاهل شأنهم ثم لا ينسى أنهم ما قاموا بتلك الاعمال
إلا لأنهم مثلوا على غير علم حيال أنهم وعصورهم فلا حول لرحل
في تحريك أمة إلا اذا تمثل أحلامها تمثل موسى حاحة اليهود الى
الخلاص بعد أن احتمرت في قلوبهم مدد سين قصوها عبيداً
ترهق أحسامهم سياط المصريين وأدرك (بودا) و (عيسى)

تعاسيات عصورهم فصوروا الرحمة والحنان بصورة دين وكان
الناس يتشوقون منذ زمان الى رحمة وحنان يتحياتهم من شقاء
عام ووحيد محمد الدين فألف بين قلوب قوم كان بعضهم لبعض
عدواً وحيدى ناعمة صار نابليون تمثل الرعدة فى المهد الحرنى
والر هو بشر الثورة ذلك ما اشتهرت به فى عصره أمة طاف بها
خمسة عشر عاماً أنحاء أوروبا وأعراس لم يكن إلا صرباً من الحنون
ان قواد الشر هم الذين يمثلون مبادئ الشر ويعملون على
شرها وان شئت فعل فائد الناس مبادئهم ويتم النصر للمبادئ
متى قام للدفاع عنها متهوسون ومؤمنون ولا عزة بما اذا كانت
على حق أو باطل بل ان التاريخ يبيد ما أن أكرها باطلاً أكرها
أرأى فى فتنة الناس وحتى الآن لا نعلم أنه أصاب الدنيا انقلاب
أو سقطت حصارة كان يظهر أنها حالدة أو قامت حصارة على
أطلالها إلا اذا كان ذلك باسم مبادئ يحل العقل منها وليست
مملكة السموات هى التى هيئت لفقراء العفول كما جاء تنوكيده
الإيحيل بل مملكة الارض على شريطة أن يكونوا من دوى
اليقين الذى رفع الحال الراسيات وعلى الفلاسفة الذين يقتلون
الادهار فى هدم ما ساء المؤمنين فى يوم واحد أن يحجروا لهم
ساحدين فاهم حلقة من سلسلة تلك القوى الحفية المهيمنة على

الكائنات واعداءوا بأعظم الحوادث التي حدثت في بطون
التاريخ

حاءوا للناس بالأوهام والناس عاشوا تلك الأوهام المحيطة
الجذابة الباطلة وستبقى مصدر حياتهم في المستقبل فان قيل
أبها طيف لاحقيقة له قلبا طيف وحب احترامه فبفضله عرف
أباؤنا حلاوة الأمل فاطلقوا وراء تلك الأوهام انطلاق الشجاع
أصاته حة وأعدوا من المحمية الأولى وأوصلوا إلى ما نحن
فيه الآن كذلك كانت الأوهام أشد عوامل الحضارة تأثيراً

الوهم هو الذي شاد الأهرام وعطى وجه مصر نصحر مصروع
مدى خمسة آلاف عام والوهم هو الذي بنى في القرون الوسطى
تلك البيع الصخية الهائلة ورعى بالعرب فوق الشرق للاستيلاء
على أحد القصور والوهم هو الذي أسس أدياناً وانها نصف
البشر والوهم شاد أكبر الممالك وأناد أعظم الدول وهكذا
بدلت الإنسانية حل محبودها وراء الخيال لاطلماً للحقيقة وما
كان لها أن تصل إلى أعراصها الوهمية ولكها في سيرها حققت
الرفق في كل معنى وما كانت تتطلب منه شيئاً

الباب الخامس

تحلل الخلق ومسقوط الأمم

الفصل الأول

كيف تدبّل الحصاره قتموت

تحلل الأنواع العسرة — كيف تعدم الكفاءة الوراثية في زمن قصير بعد
ان احتاحت في تكاثرها الى دهر طويل — في أنه يسعى للأمة زمن طويل لتبلغ
دروة الكمال الممكن وقد لا يحياح الا الى زمن قصير لتسقط الى الدرك الاسفل
— في ان أهم عوامل انحطاط الأمة انحطاط حلقها — في أن طرقة انحلال
المدنية واحدة عند جميع الأمم حتى الآن — في علامات الانحطاط البدنية في
نقص الأمم اللابسة — في نموحي الدات — في ضعف الهمة الدابية والارادة
— في انحطاط الخلق والآداب — في الشبهة الحاصرة — فيما قد يكون للاشراكية
من التأثير — في أخطارها وقوتها — في أمها نفود الحصاره التي تمنى بها الى
تطورات وحشة صرفة — في الأمم التي محور انتصار الاشراكية فيها

شأن الانواع البسبية في عدم الدوام شأن الانواع التشريحية
أى الحسماية لأن أحوال البيئة التي تقتضى وجودها لا يدوم
مدى الدهر فاذا تعيرت تلك الاحوال لابلث عناصر المراح
العقل التي كانت مرتكرة عليها أن تتضاءل حتى تعدم ههناك

اذن بواميس طبيعية تحكم على حليات العقل كما تحكم على خليات
الجسم وهي ظاهرة الاثر في جميع الكائنات . ومن مقتضى تلك
البواميس أن الرمن الذي يلزم لاعداد الاعضاء التي تتكون
الدات منها أقصر حداً من الرمن المقتضى لتكوينها ذلك لأن
العضو الذي لا يعمل لعدم حاصية العمل بالأتوان كعيون السمك
التي تعيش في المياه خلال الصحور يضعف نورها ويصير ذلك
الضعف وراثياً مع الرمن وإذا بطرنا الى حياة الاسان على قصرها
وجدنا أن العضو الذي لم يتكون الا بعد أجيال كثيرة تعدد الوراثة
يشل سريعاً اذا بطل استعماله

ولا يشد المراح العقلي عن حكم هذه البواميس فالحلية المحية
التي لا تعمل تفقد وطبيتها ومن هنا صبح أن بعض الكفآت
العقلية التي تتكون على طول الرمن تزول في وقت قصير والشجاعة
وقوة الاستساط والعريمة والاقدام وغيرها من صفات الخلق كلها
بطيئة التكوين وهي سريعة الروال اذا لم تجد محلاً للعمل فيه
ومن هنا يعلم السبب في أن الأمة لاتنال قسطاً من الرقي الا
عمرور العصور الطويلة وأنها قد تهوى الى الحضيض على محمل
وإذا أمعنا النظر في أسباب سقوط جميع الأمم التي يدكرها
التاريخ فلا استثناء لافرق في ذلك بين الرومان أو العجم أو غير
هؤلاء وهؤلاء وحداً أن العامل القوي في انحلالها تعير طراً على

مراجها العقلي ترجع علة الى انحطاط الخلق ولست أعلم أن دولة واحدة سقطت لانحطاط الدكاء في قومها فطريقة انحلال المدنيات واحدة حتى أن الانسان ليتساءل كما فعل أحد الشعراء ان كان التاريخ الذي امتلأت به المجلدات العديدة صفحات كثيرة أو هو في الحقيقة صفحة متكررة

إذا بلغت الأمة دروة الحصار والقوة فأمنت في مأمن من عارة الحار ومالت الى التمتع بعملة السلام والمعيشة الراضية التي هي بدت اليسر مانت فصائلها الحرية وتحدد لها من الخانات بقدر ما راد في حصارها وتمكن حب الدات من النفوس ولم يعد من همها الا سرعة التمتع بالخيرات التي نالتها على محل فتصرف الهم عن الاشتغال بالمصالح العامة وتضيع في الناس الفصائل التي كانت سدا في عظمة الأمة وحيث يدعي عليها حارها من الأمم المترددة أو التي هي في حكمها لأنه إن كان أقل منها حصاره فهو أشد حبالا ثم يهدم حصارها ويقم أطلالها حصاره أخرى ذلك ما جرى للرومانيين والفرس فاهم على ما كانوا عليه من أحكام النظام شنت البرر شمل الدولة الاولى كما شنت العرب شمل الثانية ومن المحقق أن الذي أعور المعلوب لم يكن هو العقل والدكاء بل أنه لامباسة في ذلك بين العال والمعلوب لأن أرق العقول وأكثر العطن ظهرت في روما وهي حلى عوحدات

سقوطها أعمى في عصر الامبراطرة الاول ففي ذلك الزمان سغ
أهل الفنون والادباء والعلماء والى ذلك العصر ترجع جميع الاعمال
التي نبى عليها مجد تلك الامة الباذح ولكنها كانت أصناعت
العامل الأساسي الذي لا يقوم الدكاء مقامه مهما بلغ ألا وهو الخلق
كان للرومانيين الاولين حاجات قليلة وحيال قوى هو عظمة
روما وكان هذا الحيال مستولياً على جميع القلوب وكل وطني
كان يفديه بالمال والنفس والعيال فلما صارت روما قطب دائرة
الدنيا وأعمى مدينة في العالم جعل الأتباع ينساقون اليها من كل
حذب فسحقهم في آحر الأمر لقب وطيبين وما كان لهم حظ الا
التمتع برحرفها وما كان لهم عناية بعرها وعلوم مكانها أصبحت
تلك المدينة الكبرى محشراً في الخلائق من جميع الأجناس الا
أنها لم تكن اذ ذاك روما وكانت تلوح عليها في الظاهر علامات
الحياة ولكنها كانت لعطت روحها منذ عهد بعيد

وهناك أسباب شبيهة بالي سقت تهدد بقاء حضارتنا الراقية
ويراد عليها أسباب جديدة آية من التعبير الذي طرأ على الافكار
تأثير الاكتشافات العلمية المصرية فقد بدل العلم بأفكارنا
الاولى أفكاراً أخرى وأفقد ما كان للمبادئ الاجتماعية الدينية
من التأثير في الناس وأراح الستار للالسان فعلم مقدار دقة
مكابه في هذا الوحد وعلم أن الطبيعة غير شاعرة به فيها وفعه

أن الذي كان يسميه حرية ليس إلا الجهل بأسباب الاسترقاق
وأن شأنه في الحياة الدنيا أن يكون عسداً بين مخالف الأقدار
التي تدفعه بالقهر عنه وأيقن بأن الطبيعة لا تعرف تلك العاطفة
التي يسميها الرحمة وأن الرقي الذي وصلت إليه الانسانية لم تلده
الطبيعة إلا لعامل التفاعل بين العناصر الكونية قوتها يدق عبق
ضعفها. تلك أفكار شديدة الوقع يقف بها الدم حامداً في عروقه
وهي تخالف معتقدات آباءنا الذين كانوا في عيشة راضية وقد
ولدت في النموس شكوكاً مزعجة وحلت على أهل العقول الصغيرة
فوصى الأفكار الذي يمتار المرء في هذا الزمان وعيرت تلك
الشكوك أطوار الشبهة المشتعلة بالآداب والصون فعرست
فيها حموداً مشوباً بالكآبة وذلك أفقدها الإرادة ونزع منها
المقدرة على الاهتمام بأي أمر وجعلها تعد المانع الداتية الوقتية
دون سواها

لاحظ أحد كبار الكتّاب في هذا العصر ملاحظة أصاب
ها الواقع وهو (أن الحس البشري متسلط على ملكة التصور
في هذا الزمان) وأراد أحد ورراء المعارف أن يشرح هذه المشاهدة
في حطاة ألقاها حديثاً فقال وملاحظه تدل على سروره من نفسه
« أن حلول المادى البسيطة محل المادى الكلية في جميع معارف
الإنسان هي أكبر الفتوحات التي أتانا العلم بها » على أن هذا

الفتح قديم في الحقيقة لا جديد فملاسة الهند كانوا يقولون به
منذ عشرة قرون وليس مما يسرنا رجوعه عندنا مرة ثانية
لأن الخطر كل الخطر ناشئ على الأخص من فقدان التصديق
بالمعتقدات التي كانت حياة الأمم قائمة عليها وأي لا أعرف من
أول التاريخ حتى الآن حصاراً أو نظاماً أو معتقداً يرجع فيه إلى
مادى ليس لها إلا قيمة نسبية فان قيل أن المستقبل في الظاهر
لماذا الاشتراكين التي يردّها العقل والسبب في ذلك أن تلك
المذاهب هي التي يدعى المانوي بنشرها أنها مشتملة على حقيقة
كلية ومن عادات الجموع أنها تلف حول الدين يدعوها إلى
الحقائق المطلقة ولا تعتمد على عدايم ولا يكون الرجل سياسياً
إلا إذا سرّ روح الجموع ووقف على حقيقة أخلاقها وترك التحريكات
الفلسفية طهرياً فان الأشياء لا تتغير إلا قليلاً وانما الذي يتغير
صورها والمطن هو الذي يستخدم تلك الصور

نعم ليس في وسعنا أن نعرف من حقيقة الوجود إلا ما ظهر
أعلى حالات نفسية قيمتها نسبية بالضرورة لكن إذا نظرنا
إلى المهمة الاجتماعية حار لنا أن نقول بأن لكل عصر ولكل
أمة أحوالاً وآداباً ونظامات ذات معنى كلي ولا نقاء لتلك الأمة
إلا بذلك كله فإذا فام الحدل عليه وتطرق الشك فيه إلى العفول
فقد افترت ساعة الأمة لا محالة

هذه حقائق ليس هناك حرج من تقريرها مما من علم يسكرها
والصرور كل الصرور في تقرير ما يحالها أمام مذهب العدمية الفلسفية
الذي يتصدى لبثه بعض أهل الرأي في صمغاء العقول فانه يفضي
هؤلاء الى اعتقاد أن نظام الهيئة الاجتماعية الحاضر نظام حائر
لا رحمة فيه البتة وأن طبقات الناس التي فطروا عليها صرب من
الهرء والسحرية ولعرس في قلوبهم بعض ما هم عليه من كل شيء
ونقودهم مباشرة الى الاشتراكية والفوضى وساسة هذا الرمان
شديدو الاعتقاد وتأثير النظامات صعبوا الايمان بالمبادئ مع
أن العلم تكشف القناع لهم عن اشتقاق الاولى من الثانية وأن
بقاء النتائج مشروط على الدوام بقاء المقدمات فالمبادئ عبارة
عما في الكائنات في العوامل الناطقة واذا انهدمت تهدمت
باعدامها الأسس الحصية الى تركر عليها النظامات والحصارة
وكذلك كان أشد أوقات الامم محنة هو الرمان الذي دهست فيه
مبادئها الى حيث دهست معتقداتها

واذا انتقلنا من المقدمات الى النتائج وحب علينا التسليم بأن
علامات الاضططاط أصبحت نادية في معظم الامم الاوروبية وعلى
الاحص في الامم المعاصرة بها باللاتينية سواء جاءها هذا الوصف
من حيث الاصل أو من حيث التقاليد والتربية فتراها تفقد كل

يوم شيئاً من قوة الاستسباط والهمة والادارة والكفاءة للعمل
وتكاد تكتفى بسد حاجاتها المادية وههه كل يوم في اؤدياد .
أما العائلة فصائرة الى الانحلال وقوى المجتمع آحدة في التمرق .
والغضب والخرج ينتشران في جميع الطبقات من أحققر الفقراء
الى أكبر الاعياء وأشبه الانسان في هذا الزمان صر كماً فقدت
ربانها فهمامت كما نشاء الأقدار أنى تسيرها الرياح . وأحد يضرب
في أودية المراع التى كانت تملأها الآلهة فعملها الماوم قاعاً صمصماً
فلسا أصابع الانسان ربه فقد الرحاء وقويت في الجموع حاسة
التأثر وصارت سريعة التحول الى الدرحة القصوى ولم يعد
أمامها من سد يرد حماحها وهى تموج بلا انقطاع مستقلة من حيون
الموضى الى حيوع الاستنداد محرد القول يثيرها ولها كل يوم
معبود حديد تسجد له فى الصباح وتعدمه فى المساء يحيل لكأأها
تحدى طلب الحرية وهى فى الحقيقة تطاردها وتسأل الحكومه
أن تصع فى أعناقها سلاسل وأعلالا تقدم الطاعة العمياء لاحقر
شيعتها وأصيق المستندس بطراً والقوالون الدين يطبون أنهم
يقودوها وهم انما يسرون حلمها لا يهرقون بين من مأككه الصحر
وهاحت أعصابه فطلب كل يوم سيداً حديداً أو بين روح الاستقلال
الدى يأتى الحيوع لسيد مهما كان الحكومة على احتلاف
مسمياتها هى المعبود الذى يستعمله الاحراب كلها يطلبون منه

كل يوم قيلاً جديداً وحماية تريد في ثقل حملها على الناس برعون
اليها أن تحيط الامة في دقائق الاعمال وحالاتها بظامات أشد من
بظامات البريطانيين وأكثر استناداً وترى الشبهة كل يوم
مائلة عن الاعمال التي تقتضى التعقل وقوة الاستبطان والهمة
والجهود الدائى والارادة تخرج من التبعة وإن صغرت وتكتفى
بالارواء في وطائف الحكومة الدنيا والتجار يجهلون طريق
الاستعمار والذين في المستعمرات هم الموطعون^(١) واستعاض
بحال السياسة الهمة والعمل بمناقشات شخصية يرتاع الانسان
من تحردها عن المعنى كما استعاضت الجموع نيك الصفي بالادفاع
أو العصب الذي يعيب مع شمس يومه وحل محلها في المتعلمين
وحدان تنله دموع العجز وقد احتلظت في صور الاشياء ثم

(١) انقلها عن حريدة (السيكل) سدة من خطاب القاه موسيو
(اتين) وكيل بطارة المستعمرات في مجلس النواب تاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٨٩٠
قال «بلغ سكان (قوششين) ٠٠٠ و ٨٠٠ و ١٠٠٠ نسمة ناهيا ٦٠٠ و ١٠٠ من
الفرساويين منهم ٢٠٠ و ١٠ موطعون وتحكمها مجلس يسبحه هؤلاء ولها نائب في
مجلس الشورى أهل ترحون أن لا ينشر الفوصى في تلك البلاد (صحح وصححك
من أماكن كثيرة) أعلمون بأن هذا التدبير وأنه يحرم عنه أن الميرانية مع
أنها سقطت إلى ٢٢ مايو بلع الإدارة منها سعة ملاين وقد كتبت عما في سنة
١٨٧٧ إلى الاقلال من الموطعين فأبصت المال المخصص لهم بمقدار ٣٥٠٠ و ٥٠٠
هريك وكان ذلك في شهر أكتوبر وفي شهر ديسمبر سقطت الوراثة إلى كتبت منها
وفي شهر مارس كان الدس أعفنتهم من الخدمة عادرا كلهم إلى ورائتهم»

أقوال فاتورة يتدبون بها شقاء هذا الوحد وأنى دنوت وحدث
حب الذات بالغا حده وأمة هذه حالها لا يكون للفرد منها هم إلا
بداته وهالك تلقى الضائر سلاحها وتنحط درجة الآداب
العامّة الى أن ترول شيئاً فشيئاً^(١) ويفقد المرء كل قدرة على قياد

(١) معظم حطرا لمخطاط الآداب اذا رول بعض الطبقات كعائفة القضاة
والموثقين الذين كانوا قديماً عمارون بالعفة اميار الحيدى شجاعته وقد سقطت
بدايات الموثقين في هذا العصر الى درجة سحيقة فان الاحصاء الرسمى يدل على
أن نسبة المتهمين بهم بلغت ٤٣ في كل ١٠٠٠٠ مع أن نسبة المتهمين في الأمة
كأبها لا يريد عن واحد في مثل ذلك العدد وقرأت في الجريدة الرسمية الصادرة
بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٩٠ السدة الآتية من تقرير رفعه باطر الحقاية الى
رئيس الجمهورية قال « رادت المصائب التي أفلعت الأمة منذ سنة ١٨٤٠ حتى
اصطر أحد سلفائ سنة ١٨٧٦ الى الفات البينة لحالة الموثقين العائناً خاصاً لأن
الرفق والمصائب التي كاب تقع في ذلك الحين احدثت صعة محيعة لم يمهّد من قبل
فرا د عدد هذه الوقائع المحزنة من (٣١) سنة ١٨٨٢ الى (٤١) سنة ١٨٨٣
الى (٥٤) سنة ١٨٨٤ الى (٧١) سنة ١٨٨٦ وبلغ مجموع ما احلّسه الموثقون
بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٨٨٦ اثنين وسين مليوناً و٧١ سنة ١٨٨٩ أحليت
وطائف مائة وثلاثة موثقين بمعصم بالعرل والمعض باحصاره على ترك وظيفته وادا
جمعاً الى هذه الحوادث سقوط المشروعات المالية الكبيرة مثل بنك (الكسوار
ديسكوت) وبنك الحصم والوفير وساما وغيرها وحب علينا الاقرار بأن
للاشتراكين بعض العدر في سخطهم على آداب الطبقات التي تدرشؤون الأمة
ومن نكد الخط أن هذا المخطاط الأذى نادى جميع الأمم اللاتينية كما تدل
عليه فصحة النبوة الرسمية في انسابها حيث ظهر فيها أن أرفع رجال السياسة كانوا
يسرفون الاموال بغير حساب ثم افلاس (الرجال) والحالة المالية المعسرة الحارة

نفسه فلا يعود يصبط ميوله ولم يسد نفسه ساد غيره عليه
 من الصعب تغيير هذا الحال اذ يجب علينا قبل كل شيء أن
 نغير طريقة تربيتنا اللاتينية المحزنة فامها تحررنا من قوة الاستساط
 ومن كل همة إن كانت الوراثة تركت فينا أثراً مما ذكر ثم هي تقتل
 ملكة الاستقلال العقلي لأنها لاتتق للشبهة مطمحاً الا المسابقة
 في الامتحانات وذلك أمر ممقوت لا يقتضى الا اجهاد الحافظة
 وبتبعته أن يتولى جميع الشؤون في الأمة أناس تنحصر أهليتهم في
 الاستسلام الى التقليد وهم لذلك أقل العاملين حذارة بولاية الاعمال
 التي تطلب الهمة الذاتية والاقدام رار (حيرو) المدارس الانجليزية
 فقال له بعض كبار المعلمين « انى أحاول أن أصب شيئاً من الحديد
 في روح التلاميذ » فأبى ترى في الأمم اللاتينية معلمين وبطامات
 تعليم تؤدي الى مثل هذا الخيال . ولعل النظام العسكري يحققه
 وعلى كل حال فهو وحده الوسيلة اليه فأهم الشروط الى تلم
 لهوص الأمم المائلة الى السقوط تعميم نظام الحديدية وجعله قاسياً
 حداً وأن تكون الأمة على الدوام مهددة بحروب طاحنة
 تلاقى الأمم اللاتينية صعوبة في البقاء تحت ظل شرائع

في اسبانيا واساليا والسقوط العميق الذي وقعت فيه الجمهوريات اللاتينية في أمرها
 كل ذلك شئت أنه قد اصاب خلق بعض الأمم وآدابها مرض لا دواء له وأن
 شأنهم في الوجود مشرف على الروال

حرية بعيدة عن الاستبداد بعصدها عن الفوضى . وتلك الصعوبة
آتية من المخطاط الخلق العام وفقدان أفراد الأمة ملكة ضبط
نفسهم وانصرافهم عن المرافق العامة الى حب الذات . ومن
السهل أن يدرك التأمل بعض الجموع مثل هذه الشرائع لأن
الجموع ميالة الى الحكم العيصري رجاء أن يبيلها المساواة في التسخير
لا في الحرية التي لا تكاد تأت بها . ولكن الذي يصعب ادراكه
نفور الطبقات المستبيرة من المطامات الحرية اللهم إلا إذا حملناه
على ما ورثناه عن آباءنا الأولين مع أن النبوغ في كل معنى وعلى
الأحص رقى المدارك لا يجد حواً يسبح فيه أصنى من حو هذه
المطامات . ولعل العيب الوحيد فيها عند طلاب المساواة على كل
حال هو صلاحيتها لتكوين طوائف عقلية ممتارده ذات قوة عظمى
وأما أشد المطامات عشاً بالأحلاق وبالعقول فهو البطام القيصري
على اختلاف أنواعه . ولا فضل له إلا أنه يسوى بين جميع الناس
في المخطاط النفس والهوان في المدله . وهو أليق المطامات باللام
الهاوية الى السقوط . لذلك ترجع اليه ما وحدث الى الرجوع
سديلاً ومهجة لباس فائد أياً كان يحرها الى تلك الهاوية . وهى
وصات الأمة الى هذا الدور فقد تولى رماها وداسقوطها
عهد التاريخ بالقيصرية أنها تطهر في الحصاره اتان هو صها
واتان سهوطها وهى الآن تدحل في تطور طاهر للبيان حيث

تبدولنا باسم الاشتراكية والاشتراكية هما الفرد في الدولة بل هي أشد من القيصرية لأن أكبر المستبدين عتواً يخشى العاقبة ولكن حكومة الجمع لا سبيل لأحدها بتبعة وإن عظمت الاشتراكية في عصرنا أكبر الأخطار التي تهدد الأمم الأوروبية في وجودها وهي لا محالة محهرة عليها في سقوطها بعد أن عملت فيها العوامل الأخرى وقد تنقصي لسانها الحصارات العربية

ولكى تقف على مقدار الخطر الذي يحتمل عن هذا المذهب وعلى شدة تأثيره الطر إلى قوة استحلاص النعوس إليه لا إلى التعاليم التي جاء بها فكأنى به وقد أصبح الدين الجديد لكل من شقت عليه الحياة وشعر بوفر الأحوال الاقتصادية الناشئة عن حصاره هذا الرمان وأولئك جموع لا تحصى وسيملاً هذا المذهب السموات بعد أن أمست حالية ويقوم في نعوس الدين صعموا عن احتمال الحياة بلا خيال مقام الحمة التي كانوا يرونها خلال بواقد الجوامع والصوامع عشاق هذا الدين القادم كل يوم في اردباد وعمما قريب تطهر صحاياه وحيثئذ يصير أحد المعتقدات الدينية التي تهب الامم لصوتها وإلى تملك القلوب ملكاً مطلقاً

أما كون مذهب الاشتراكية يقصى بالامة إلى أحسن درجات

الاسترقاق ويقتل في نفوس من خضعوا للحكمة كل هذه وكل
استقلال ذلك بما لا جدال فيه غير أنه لا يعرف ذلك إلا علماء
النفس الواقفون على أحوال الحياة إلا أنه بعيد عن مخيلات الجموع
لأنها لا تسلم على هذه الأدلة . والأدلة التي تقع بها لا تأتي من
طريق العقل

وأما كون هذا المذهب بعيداً عن التسليم به من كل من له
أدنى ذوق سليم فهو أيضاً مما لا يشكره أحد إلا أن المذاهب
الدينية التي ملكت قيادنا مدى الدهور حتى الآن كانت بعيدة
أيضاً عن كل ذوق سليم وما كان ذلك مانعاً من خضوع أكثر
العقول لسلطانها إن الإنسان لا يصح في المعتقدات لغير
شعوره اللاتنهي وللشعور اللاتنهي دائرة لا محل للعقل بين
محتوياتها

وعليه فلا مناص للام الأوروباوية من الرضوخ لدور
الاشتراكية مهما احتوى من خطر عملاً لطبيعة المراح العقلي
الذي حلقه الرمان فيها وسدحل به في آخر دور من أدوار
الامحطاط لانه يهبط بالحصاراة الى الدرك الاسفل ويمهد السبيل
لعارة البربر التي تهددنا بالخراب

واذا استشينا الامة الروسية التي هي أمة أسيوية من الجهة
النفسية أكثر منها أوروبوية لا يرى في أوروبا غير الانكابر لهم

حرية كبيرة ومعتقدات ثابتة وخلق عقل الى الاستقلال بحسبهم
 من سبيل الدين الجديد. أما ألمانيا الجديدة فإنها ستكون من أول
 حضائيا بالرقم من مخايل الرق التي تظهر عليها. بدليل نجاح الطوائف
 الاشتراكية المنتشرة في ربوعها. ومن المحقق أن الاشتراكية التي
 تقضي الى حرامها ستليس ثوبا علميا خشنا قد يليق بأمة تصورية
 يتعذر وجودها في نبي الانسان ولكن المولود العقلي الأتخير
 سيكون أشد تعصبا وأكبر قوة من احوته السابقين والمنايا
 أكثر الأهم استعدادا لقبوله فلها فاق على الكل في عقدان
 ملكة الاستنباط والاستقلال وعادة حكم الأمة نفسها (١)
 أما روسيا فاما كانت الى عهد قريب على نظام (المير)
 أعنى نظام الاشتراكية المعروفة عند الأمم المطرية وهو أكمل
 صور الاشتراكية بل هي لم تخلص منه تماما. ولا يمكن أن
 تفكر في الرجوع الى تلك الحال المحطة فلها مستقبل آخر. إدلا
 شبهة في أمها هي التي ستسوق الجموع البربرية على الأمم الاوروبية
 لتهم حصارها بعد أن تكون الحروب الاقتصادية ومداهب
 الاشتراكية مهدت لها السبيل

إلا أن هذه الساعة لم تأت بعد ولا يزال يساويها بعض

(١) أذكر الكتاب الالماني موافقون كل الموافقة على هذا في كتاب

المراحل على ان في الاشتراكية من شدة العسف يمنع
من بقائها وستجعل الناس يترحمون على عصر (تدير)
و (كاليجولا) إنا لنعجب كيف احتل الرومانيون مظالم هذين
الجنارين وأمثالهما . ولكن العجب يرول متى عرفنا أنهم كانوا
قطعوا أدوار الحروب الاجتماعية والاهلية وقاسوا أنواع الحرمان
في النبي حتى فقدوا حلقهم ورأوا في أولئك الطالين آخر وسيلة
للسلامة التي كانوا يرحونها واحتملوا منهم كل حيف لاهم ما كانوا
يعرفون كيف يستعوضونهم بغيرهم والواقع أنهم لم يجدوا بديلا
عهم بعد رواهم بل حرقهم سيل البرر وحطم مدينتهم تلك
كانت عاصمة دولة الرومان وتلك دورة التاريخ في الرمان

موسيو (ريجلر) الاسناد في كاية (اسبراسورج) اذا الميل العمام في
اسكره الى حكومة الامة نفسها فان العويل على الحكومة هو ما تختاره الامة
اللاماية منحة أمة وصعت تحت الوصاية مدد دهر طويل أصف الى ذلك أن
يد (سبارك) القوة أفعدتا مدى العشرين سنة الماصية ماسكة الاستسباط
والشعور بالذعة وان كات جعلتا في مأس مما كسا بحاف ومن أحله ناعا الى
الحكومة في كل حادث حلل بل في الحوادث الصخرة أيعباً ومكل كل شئ
لعانتها) اه المؤلف

وكأني بالمؤلف يرل مشاعر فومه مرلة الواقع وكأني بموسيو ايجلر يشع
فومه ويستنهضهم الى أنعد ما وصلوا اليه فالظاهر للسان أن الالان أمة حد
واقدام وهمة واستسباط ومثارة وري مستمر

الفصل الثاني

حلاصة عامة

وهنا في مقدمة هذا الكتاب أنه موحى لخصنا فيه ما
كتبتناه في تاريخ حضارات الأمم فكل فصل من فصوله ثلاثة
حلاصة المؤلف سابق وعليه من الصعب تلخيص هذا التلخيص
ولكني سأحاول ذلك لفائدة القراء الذين يعوزهم فراغ الوقت
وأقدم لهم المبادئ الأساسية التي تشتمل عليها فلسفة هذا
الكتاب في صورة قضايا موحدة

لكل أمة خواص نفسية ثابتة ثبات خواصها الحسية
تقريباً ، والنوع النفسي كالنوع الجسمي أي المادى لا يتغير إلا
على طول السنين ومر الأحياء

يوجد محاذات الخواص النفسية الثابتة الوراثية التي يتكون
منها المراح العقلي لكل أمة خواص ثابتة تنشأ من تغيرات البيئة
وتتحدد على الدوام فيحبل لذلك أن الأمة في تحول مستمر كبير
المراح العقلي لكل أمة هو حلاصة أفرادها الأحياء
وأسلاتهم الذين كبروا فالشأن الأول في حياة الأمم للاموات
للاحياء لأنهم هم الذين خلقوا شعورها الأدبي وهياؤها الأسباب
المعيّدة في سيرها

تتناز الأمم بعضها عن بعض بفروق كما امتارت بفروق
نوعية والاولى ملارمة للثانية والفرق ضعيف بين أفراد
المثال الوسط في أمة ومثلهم في أمة أخرى وعظيم جداً بين أفراد
الطبقات الراقية ومن هذه المقارنة يتبين أن الفارق بين الأمم
الراقية وبين الأمم المحططة هو في احتواء الاولى عدداً غير قليل
من ذوى العقول الكبيرة وفي أن ذلك غير موحود في الثانية
يتساوى أفراد الأمة المحططة فيما بينهم مساواة واضحة وكلما
ارتقت الأمة وحدث الفروق بينهم فآثر الحضارة الذى لا بد
منه هو إيجاد الفروق بين الأمم وبين الأفراد وعليه هى سائرة
نحو التماوت لا نحو المساواة

حياة الأمة ومظاهر حضارتها مرآة وروحها تدل على أمر حتى
لكنه موحود. فالحوادث الخارجية أثر طاهر ليسيح حتى هو الصعال
ليس الشأن الاول فى حياة الأمم للاتفاق ولا للاحوال
الخارجية ولا للبطانات السياسية على الاخص بل لخلق كل أمة
لما كانت عناصر مدنية كل أمة هى الدلالة الخارجية على
مراحمها العقلية أعى ممثلة حال تلك الأمة من حيث الكيفية
الخاصة بها فى شعورها بالمحسوسات وتصورها إياها من المتعذر
نقل تلك العناصر الى أمة أخرى من دون تعبير فيها وأما الذى
يمكن نقله هى الصور الطاهرة السطحية التى لا قيمة لها

اختلاف المراح العقلي بحسب الأمم يجعل كل واحدة تتصور الوجود بصورة خاصة وهي اذن تختلف في الحس والعقل والعمل ويقوم التفرع بينها على جميع المسائل متى احتكت بعضها . وهذا التفرع هو سبب جميع الحروب المدونة في التاريخ حروب المفتح والحروب الدينية وحروب العائلات المالكة كلها في الحقيقة حروب حسية

لا يتكون من مجموع أفراد مختلي الأصل شعب مستقل ، أعنى أنهم لا يكون لهم روح يشركون فيها كلهم الا اذا كثر تبادل النسل بينهم مدة طويلة واتحدت معيشتهم في يثاات متحدة .

وصارت شعائرهم واحدة ومفاهيمهم مشتركة ومعتقداتهم عامة لا يكاد يوجد في الأمم المتحصرة شعوب أصلية بل ليس هناك الا شعوب صناعية تكوت من أحوال تاريخية

لا يؤثر تعير البيئة تأثيراً شديداً الا في الشعوب الحديثة أعنى الى تكوت من أحلاط شعبية تفككت أخلاقها الموروثة بكثرة التناسل فلا يهل الوراثة الا الوراثة وادالم يكن للتناسل من القوة ما يكفي لرعة الأخلاق وتشتيتها كان تأثير تعير البيئة قاصراً على التحريب وهدموت الشعب القديم ولا يقل التعبير الذي يقتضيه ضرورة اطباعه على بيئة جديدة

تلع الأمة دروة محدها متى تم لها روح قوى عام وتسقط متى تحلل هذا الروح وأهم العوامل في هذا التحليل دخول عنصر أحيى في الأمة

تتأثر الأنواع النفسية كالأشكال المادية بالزمان كلاهما يهرم ويموت . وتحتاج كلها في تكوينها إلى زمن طويل وقد ترول في وقت قصير . إذ يكفي أن تصطب و طائف أعضائها ليحدث فيها تطور نحو السقوط وقد تكون نتيجة الدمار العاجل فالأم تقطع قروناً طوالاً قبل أن يثبت لها مزاج عقلي خاص وقد ينفذ في بهمة يسيرة والشقة إلى تسير فيها إلى الحصار بعيدة ومنحدر السقوط قصير عالماً

المادىء من أهم عوامل الحضارة بعد الخلق ولكنها لا تؤثر إلا بعد أن تتطور على مهل حتى تصبح شعوراً وتصبح حراً من الخلق نفسه وتخرج بذلك من دائرة السحت والطر ولا ترول المادىء إلا بعد مرور دهر طويل وكل حضارة ترجع إلى بعض مبادئ أساسية مسلم بها من الكافة

أهم المادىء المؤثرة في الحضارة المادىء الدينية واختلاف الأديان هو السبب البعيد في أعظم حوادث التاريخ فتاريخ الإنسانية مقترن على الدوام بتاريخ آلهتها وهؤلاء أبناء خيالنا ولهم مع ذلك سلطان كبير حتى أن تعبر أسمائهم كآف وحده في قلب نظام العالم بأسره وظهور آلهة جديدة كان على الدوام طليعة لحضارة ماضية واحتماؤهم كان الدوام بدرأروا الحضارة مدبرة

فهرست مقدمه المؤلف

صحيحة

٢ مذهب المساواة في العصر الحاضر وروح التاريخ

الباب الاول

طباع الشعوب العنصرية

- ٩ الفصل الاول — روح الشعوب
- ٢١ الفصل الثاني — حدود تعبير أخلاق الأمة
- ٢٨ الفصل الثالث — الطبقات العنصرية للأمم
- ٣٩ الفصل الرابع — درجات الفروق بين الأفراد والأمم
- ٤٨ الفصل الخامس — تكوّن الأمم التاريخية

الباب الثاني

صحيحة

ظهور أخلاق الأمم في عناصر مدينتها

- ٥٧ الفصل الاول — في أن عناصر المدينة في كل أمة هي مظاهر روح الأمة في الخارج

٧٢٤ الفصل الثانى — كيف تتغير النظمات والديانات واللغات

٨٦ الفصل الثالث — كيف تتغير الصور

الباب الثالث

تاريخ الأمم باعتباره مشتقاً من أخلاقها

١٠٧ الفصل الاول — كيف تصدر البطامات عن روح الأمة

١١٥ الفصل الثانى — تطبيق المطريات الساقطة على تطور الولايات

المتحدة بأمريكا والجمهوريات الاسبانية والامريكية

١٢٧ الفصل الثالث — فى أن تغير روح الأمة يعبر من تطورها

فى الحياة

الباب الرابع

كيف تتحول الصفات النفسية للأمم

١٣٧ الفصل الاول — أثر المبادئ فى حياة الأمم

١٥٥ الفصل الثانى — تأثير المعتقدات الدينية فى تطور المدنية

١٦٣ الفصل الثالث — شأن عطاء الرجال فى تاريخ الأمم

الباب الخامس

تحلل الخلق وسقوط الأمم

١٧١ الفصل الاول — كيف تدبّل الحصار هتموت

١٨٧ الفصل الثانى — خلاصة عامة

